محمد عبد المنعم خفاجي

من تراث مصر الإسلامية

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

كلمة الامام الداعية الى الله الشيخ

محمد متولى الشعراوى

مصر الاسلامية ، ما أجمل مفاخرها ، وما أروع مآثرها ، وما أعظم أياديها على العالم الاسـلامى وعلى الحضارة الانسانية .

وأخى وصديقى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى حين يكشف لنا عن صفحة ناصعة منسية من صفحات تراث مصر الاسـلامية ، يؤدى حقا واجبا محترما ، نحو وطنه وأمته ، ونحو دينه ، والتراث الاسلامى كافة .

وهـذا الكتاب ـ الذى استمتعت بقراءته وهو مخطوط قبـل طبعه ـ يكشف لنا عن مأثرة خالدة لمصر الاسـلامية ، عن جامعة اسلامية كبرى قامت قبل الأزهر الشريف على ضفاف النيل ، هى جامعة الفسطاط الاسلامية ، التى عاشت أكثر من سبعة قرون ، تبلغ رسـالة الاسلام فى كل مكان ، وتخرج أجيالا من العلماء تصدروا حركة الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية فى كل أنحاء الدنيا .

جامعة الفسطاط الاسلامية التى كان من أساتذتها : عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويزيد بن حبيب ، والليث بن سعد ، والامام الشافعى ، والامام الحوفى المفسر ، وغيرهم من أعلام الاسـلام فى شتى العلوم والثقافات الدينية .. هى التى يكشف عنها لأول مرة هـذا الكتاب ، وبحسبها أن أبا تمام ، وأبا نواس ، وأبا الطيب المتنبى كانوا من شهود حلقاتها ، وبعضهم كان ممن تخرج منها .

مرحبا بالكتاب ، وكل التقدير لمؤلفه الجليل ، أخى الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى ، الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف ومعهد الدراسات الاسلامية ، الذى أثرى المكتبة العربية والاسلامية بشتى المؤلفات التى

كان من آخرها هـــذا الكتاب ، أطال الله فى عمــره ، ونفع المســـلمين والناس أجمعين بعلمه ، وما توفيقى الا بالله ؟

الفقير الى الله الغنى المتعال الكبير

محمد متولى الشعراوى

تصـــــــدير

للأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود
رئيس جامعة الأزهر الأسبق

هذا الكتـاب ، الذى يقدمه لنا العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ، يعد كشـفا جديدا ، لجامعة اسلامية كبرى ، قامت فى مصر ، بعـد الفتح الاسـلامى لها مباشرة ، وكانت أولى الجامعـات الاسلامية فى العالم الاسلامى كافة .

وباستثناء المسجد الحرام فى مكة المكرمة ، والمسجد النبوى الشريف فى مدينة رسـول الله عليه أفضـل الصلاة وأزكى السلام ، فان مسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط الذى بناه عمرو عام ٢١ هـ قد تحول بعـد انشـائه بقليل الى جامعـة اسـلامية كبيرة ، جلس فى حلقاتها كبـار الصحابة والمسـلمين وقواد الفتح ، لينشروا دين الله ولغة كتابه العزيز بين الناس كافة .

وهذا هو دين المسلمين ، وشريعة الاسلام ، أن ينشئوا المسـاجد العامة الكبرى فى كل مكان ، وأن تتحول هـذه المسـاجد الى جامعات اسلامية بعد قليل من انشائها ، لتنشر علوم الاسلام وفقه الشريعة ولغة القرآن بين الناس قاطبة .

وهذه هى مصر ، حضـارة وعلم ومعرفة ، واهتمـام بعلوم الدين والدنيا ، وحب للعلماء ، ولمجالس العلم ، وحلقات المعرفة ، لتأصيل دين الله ، وتأثيل بناء الحضارة فى الأرض .

جامعة الفسطاط الاسلامية نحن قد نسيناها وفهمنا أن جامع عمرو كان مكان عبادة فحسب ، وأنه لم يكن دار علم وتعليم كذلك ، والا فلماذا جلس الامام الشـافعى فى حلقته فى المسـجد ؟ ولمـاذا وفد أبو تمام

من منبج بالشــام الى الفســطاط والى جامع عمرو بالذات ؟ هل جاء ليسقى المــاء فى جامع عمرو فحسب ؟ انها مهمة صغيرة يقوم بها أقــل مصرى فى الفســطاط .. انما جــاء أبو تمام ليتلقى العلم فى جامعــة الفسطاط ، وكان اذا فرغ من حلقات العلم فى يومه ، يتقرب الى الله فيطوف بالناس فى المسجد ، يسقيهم المــاء .

جامعة الفســطاط الاسلامية المنسية أو المجهولة ، احــدى مفاخر مصر الاســلامية ، وعمرها العلمى ســبعة قرون ، ثم بعد ذلك هدمت مدينة الفســطاط ، وتحولت الى أنقاض ، وأهمل المسجد ، ولم يعد فى امكان العلماء والطلاب الاســتمرار فى أداء رسالتهم العلمية فيــه ؛ وسلمت هذه الجامعة الاســلامية الكبرى الأمانة الى شــقيقها الأزهر الشريف ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ولقد عاشت جامعة الفسطاط مركزا لعلماء الاسلام ، ودار علم لفقه الجماعة والســنة فى مصر ، ولم ينقص من قيمتها أن قام قريبــا منها ، وبعد ثلاثة قرون ، الأزهر الشريف ، ليؤدى رســالة العلم والعلماء كذلك الى أبناء مصر والعالم الاسلامى ؛ وإن كان مركزا رسميا لفقه الشــيعة وعلومهم ؛ فلقد احتضنت مصر ، جامعة الفســطاط وجامعة الأزهر معا ، لأنهما يخدمان دين الله ، وحضار الانســان ، ومعارف العلماء .

ان هذا الكتاب النفيس ، والسفر القيم ، يوضح لنا تاريخ جامعة الفسطاط ، وأنها استمرت ثلاثة قرون الجامعــة الوحيــدة فى مصر ، ولمــا قام الأزهر صــار فيها جامعتان اسلاميتان ، لنشر دين الله ، وعلوم الاسلام ، تعلمان شــباب المسلمين فقه الشريعة ، فى فهم عميق ، وعلم غزير ، وبصر قوى بالأصول والفروع .

جامعة الفسطاط يكشف لنا عنها الدكتور الأستاذ العلامة الخفاجى

فى هذا الكتاب ، الذى هو بحق كشف علمى كبير ، لجامعة اسـلامية كبرى ، نسـيناها على طول الزمان .

جزاك الله يا شيخنا الخفاجى عن الاسـلام والمسلمين ، وعن مصر الاسلامية ، وعن العلم والمعرفة والثقافة ، خير الجزاء .

محمـد السعدى فرهود

رئيس جامعة الأزهر الأسبق

* * *

تنويه وتقـدير

فى مجالسنا الأدبية ، كنا نستعرض حالة الأدب فى مصر ، وأسواقه الأدبية فى العالم العربى ، وذكرنا سوق عكاظ فى السعودية ، وسوق المربد فى العراق ، الذى يحتفل به كل عام فى بغداد •

وقلنا : أليس من الأجدر بمصر أن يكون لها سوق أدبية كغيرها من أمم العروبة ؛ وأليس من الأوفق أن تتبنى رابطـة الأدب الحديث فكرة انشـاء سوق أدبية تحتفل بها كل عام •

وهنـا فكر الدكتور عبـد العزيز شرف الناقد الأدبى الكبير ، ورئيس القسم الأدبى فى جريدة الأهرام ، ثم قال : لنصطلح على أن نسمى هـذه السوق ، سوق الفسـطاط ، وأن تقيم رابطـة الأدب الحديث مهرجاناتها الشـعرية السنوية تحت ظـلال هذه السـوق ، وأن يكون سوق الفسـطاط خاصا بالشـعر والنقد ، وأن نبدأ من الآن ، ونجعله فرعاً من فروع الرابطة ، التى تستظل بظلها ، وتدخل فى جملة نشاطاتها •

ووافقنا على الفكرة فى الحال ، وأصبح سوق الفسـطاط للشعر والنقد اسما مصريا ، بل وعربيا ، بل وعالميا أيضا ، وبدأت دور الاعلام تردده كلما جاءت مناسـبة من المناسبات •

وكان الفضل فى ذلك كله للدكتور عبد العزيز شرف •

فاليه أهدى هـذا الكتاب ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا الكتاب الذى أقدمه لقارئى العزيز يضىء لنا تاريخ مصر الاسلامية ، ويكشف عن عظمتها الفكرية والحضارية والدينية ، منذ بدء الفتح الاسلامى العربى لمصر عام ٢٠ هـ ــ ٦٤١ م .

لقد قامت فى مصر منذ دخول الاسلام فيها أول جامعة اسلامية كبرى فى العالم الاسلامى ، وهى جامعة الفسطاط الاسلامية ، التى أدت رسالتها الدينية والفكرية والروحية فى مصر والعالم الاسلامى كافة ، وكانت منارة رفيعة ترسل أضواءها الى كل مكان فى الشرق والغرب ، واذا عددنا المسجد الحرام فى مكة والمسجد النبوى الشريف الشريف فى المدينة فى عهدهما الأول جامعتين ، كانت الفسطاط عند انشائها هى الجامعة الاسلامية الثالثة فى العالم الاسلامى ، والا فهى الجامعة الأولى التى سبقت كل الجامعات فى العالم الاسلامى قاطبة ، بل وفى العالم كافة .

وهذه مفخرة لمصر ، مصر الاسلامية ، التى احتفظت بطابعها الروحى والحضارى على امتداد العصور .

وهذا الكتاب سطور من موسوعة كبرى فى تاريخ جامعة الفسطاط الاسلامية ، وتاريخ مصر العلمى والثقافى .

وانى لأشعر بكل الفخر ، لأن وطنى مصر عاش على امتداد التاريخ راعيا للعلم والعلماء ، ولأن وطنى قامت فيه أول جامعة اسلامية كبرى فى العالم الاسلامى منذ عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م ، هى جامعة الفسطاط الاسلامية ، ولأن مواريثنا الثقافية الاسلامية العربية هى مواريث أصيلة حفظت لمصر على امتداد الأيام منزلتها العلمية والدينية .

واذا كانت جامعة الفسطاط عاشت حتى نهاية القرن الثامن

الهجرى — الرابع عشر الميلادى ، تؤدى رسالتها العلمية الاسلامية ، ثم ختمت صفحات حياتها منذ ذلك التاريخ ؛ فانها أسندت كل تراثها ورسالتها لشقيقتها الجليلة ، جامعة الأزهر الشريف .

وجامعة الفسطاط وجامعة الأزهر ، هما شمسان أضاءا آفاق مصر والعالم الاسلامى قرونا طوالا ، ولا زال الأزهر يرسل نوره الى جميع بقاع الأرض شرقا وغربا ، ولازال يؤدى اليوم رسالة الاسلام عالية الذرى ، مرفوعة الأعلام ؛ كما كان يؤديها بالامس ، فى حياة شقيقته الكبرى ، جامعة الفسطاط ، وبعد حياتها حتى اليوم ..

وهذه هى مصر ، راعية العلم ، وحارسة الاسلام والعربية ، والحصن المنيع ، الذى آوى اليه علماء الاسلام فى كل العصور والأجيال .

حفظها الله ، وحفظ شعبها الأمين على تراث الاسلام والمسلمين .

* * *

المؤلف

تقـــديم

منذ بنى عمرو بن العاص ــ فى أول الفتح الاسلامى لمصر ــ المسجد الجامع (أو جامع عمرو) فى الفسطاط ، صـــار هذا المسجد منارة مضيئة فى غرب العالم الاســـلامى وفى قارة افريقيا بأسرها ، وقامت فيه الحلقات العلمية التى تصدرها كبار الصحابة والتابعين . وصار المسجد جامعـــة اسلامية كبيرة تصدرها عبد الله بن عمرو بن العاص طيلة حياته . فلما توفى تصـــدرها بعده أئمة الصحابة والتابعين رضـــوان الله عليهم أجمعين ، وكان للامام الليث فيه حلقة كبيرة .

وطارت شهرة جامع عمرو الذى أطلق عليه حينا جامع مصر ، وحينا آخر جامع الفســـطاط ، وحينا ثالثا الجامع العتيق ، الى غير ذلك من الأســـماء .

ولمـــا أقام الامام الشـــافعى فى مصر الفسطاط صار له حلقة عظيمة فيه ، تصدرها الامام ، وكثر تلاميذه كثرة غير معتادة ، وفى هذه الحلقة أملى الامام الشافعى مذهبه الجديد .

ويكفى من شهرة مسجد عمرو أن أبا تمام الشاعر الكبير (١٨٠ ــ ٢٣١ هـ) تتلمذ فيه على حلقـــاته العلمية ، وان أبا نواس حين زار مصر كان يلازم المســـجد ، ويتردد على الوالى الأمير ابن الخصيب فى عاصمته منية ابن الخصيب ــ المنيا حاليا ــ .

ولمـــا قدم المتنبى مصر الفسطاط فى عهد كافور ، وأقام فيها عـــدة ســـنوات كان له فيه حلقة يجلس فيها وينشد فيها شـــعره ويستمع الى رواته ومحبى شعره من علام اللغة والأدب والشعر .

ان جامع عمرو بن العاص فى مصر الفســـطاط صار جامعة اسلامية

كبرى منذ تأسيسه عام ٢١ للهجرة (٦٤٢ م) وظل كذلك الى نهاية القرن الثامن للهجرة ، ولم يغض من مكانته قيام الدولة الفاطمية ولا تأسيس الجامع الأزهر وتحوله الى جامعة كبرى ، بعد انشائه بسنوات ، فقد ظل جامع عمرو محتفظا بطابعه العلمى الاسلامى الكبير ، بجوار جامعة الأزهر الاسلامية الكبرى ، وكان مركزا للعقيدة السنية فى عهد الفاطميين، وفيه كان يجلس العلماء السنيون المعارضون للعقائد الفاطمية .

وكان جامع عمرو يستمد من عظمة مدينة الفسطاط مجدا ومكانة ومنزلة فى جميع أنحاء مصر والعالم الاسلامى .. ومع ان الفسطاط احرقت مرة فى عهد الحاكم بأمر الله ، ومرة فى آخر عصر الدول الفاطمية بأمر الوزير شاور حتى لا تقع غنيمة فى أيدى الصليبيين ، الا أن الجامع ظل محتفظا بطابعه العلمى الى نهاية القرن الثامن للهجرة ثم انتهت منه الحلقات العلمية جملة ، وبقى مسجدا للعبادة فحسب .

وكان من المتبع أن يصلى أمير مصر فيه الجمعة اليتيمة وهى آخر جمعة فى رمضان ، حيث يخرج اليه فى موكب كبير ، ثم انتهى ذلك التقليد فى بداية ثورة ١٩٥٢ .

وحين كان المرحوم محمد حمدى عاشور محافظا للقاهرة عنى بمسجد عمرو عناية كبيرة ، وعهد الى الداعية الاسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى رحمه الله بإلقاء خطبة الجمعة فيه ، وكان المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر قد فكر فى جعله مقرا لكلية الدعوة الاسلامية الا أنه حالت دون ذلك صعوبات كثيرة .

عسى أن ينال جامع عمرو العناية اللائقة بمكانته كأول جامعة اسلامية كبيرة فى مصر الاسلامية ، وفى افريقيا كلها ، بل فى العالم الاسلامى كافة ...

الباب الأول

الفسطاط : مدينة ، وجامعا ، وجامعة

مدينة الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية

— ١ —

مدينة الفسطاط أنشــأها عمرو بن العاص بعــد فتحــه لمصر عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م .

ويقول المؤرخ أبو المحاسن : ان عمرو بن العاص فكر فى جعــل الاسكندرية بعد فتحها قاعدة للادارة والجيش ، الا أن عمر بن الخطاب لم يوافقه على ذلك ، وأمره بانشاء مدينة جديدة لا يفصلها عن مدينة رسول الله ماء ؛ فاختار عمرو الموقع الحالى للمدينة .

والمدينة قســمان :

قسم شرقى مجاور للنيل ، وفيه قصر الشمع وجامع عمرو ، وغربى يعرف اليوم بمصر القديمة .

وأقام عمرو فى وسط المدينة جامعه العتيق .

ويعد[١] جامع عمرو بن العاص أول مســجد جامع بنى فى مصر الاسلامية ، أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م بعد فراغه من فتح الاسكندرية وعودته منها ليؤسس أول حاضرة فى مصر الاسلامية ، وهى مدينة الفســطاط . وقد كان الجامع وقت انشائه مشرفا على النيل وقد عرف بتاج الجوامع والجامع العتيق ، وقد وقف على تحرير قبلته جمع من الصحابة رضى الله عنهم ، وقد وصــفه المؤرخ ابن دقماق وصــفا رائعا حيث أورد ما نصه : (امام المســاجد ، ومقدم المعابد ، قطب ســماء الجوامع ، ومطلع الأنوار اللوامع ، موطن أولياء الله وحزبه ، وطوبى لمن حافظ على الصلوات فيه ، وواظب على قيام الليل بنواصيه ، وتقرب منه الى صــدر المحراب ، وخر اليه راكعا واناب) ، ولقد كان جامع عمرو

(١) من مقال للأستاذ عبد الله كامل موسى . جريدة الأخبار .

ابن العاص بمثابة جامعة اسلامية يفد اليه الطلاب من جميع اصقاع العالم الاسلامى شرقا وغربا ، فقد كانت تقام فيه حلقات الدروس وقد حرص على التدريس به أعيان الفقهاء وأجلة العلماء ، وقد أطلق على أماكن حلقات دروس كبار العلماء بالجامع اسم زوايا ، فعرف درس الشافعى برواية الامام الشافعى لأنه كان يدرس فيها الفقه ، وذلك عندما قدم الامام محمد بن ادريس الشافعى الى مصر وألقى دروسه بجامع عمرو .

ولقد كانت بالجامع محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية ، وكذلك كان به بيت المال ، الذى عاينه ووصفه الرحالة ابن رستة من علماء القرن ٣ هـ / ٩ م بأنه كان موجودا أمام المنبر ووصفه بأنه شبه قبة عليها أبواب من حديد . ولقد أخذت القبائل العربية تشيد لها حططا حول جامع عمرو ، الذى صار قلب العاصمة النابض .

ولقد كان جامع عمرو بن العاص عند انشائه فى ٢١ هـ / ٦٤٢ م بسيطا للغاية ، كما كان المسجد النبوى عند انشائه ، فقد كان طول جامع عمرو خمسين ذراعا وكان عرضه ثلاثين ذراعا ، وكان سقفه جريدا وعمده من جذوع النخل ولم يكن له صحن متسع ، ولكن الناس كانوا يصطفون للصلاة بهذا الصحن لضيق المسجد بهم ، وكان للمسجد بابان فى واجهته الشمالية ، وآخران فى واجهته الغربية ، وكان بالواجهة الشرقية بابان يقابلان دار عمرو بن العاص ، وكان بالمسجد من جهاته الأربع طريق من سبعة أذرع . ولقد تناول الولاة والحكام جامع عمرو بن العاص عبر العصور بالزيادة والتعمير والتجديد حتى بلغت سعته أضعاف مساحة المسجد العتيق ست عشرة مرة .. وأول من زاد فى جامع عمرو خلال العصر الأموى والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى خلال عصر معاوية بن أبى سفيان فى سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م ، وفى سنة ٧٩ هـ / ٦٩٩ م زاد فيه والى مصر عبد العزيز بن مروان . وفى سنة ٨٩ هـ / ٧٠٧ م تولى عبد الله بن عبد الملك رفع سقف المسجد ، وفى سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م قام والى مصر قرة بن شريك فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وأعاد

بناءه بعد زيادته ، وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بنى عامر ابن لؤى فأدخل فيه دار عمرو بن العاص والطريق الذى كان يفصل بينها وبين المسجد ، وقيل ان قرة بن شريك أمر بعمل محراب مجوف بجدار القبلة وصار للمسجد فى تلك السنة أحد عشر بابا •

وفى العصر العباسى خلال عهد صالح بن على العباسى سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م زيد فى المسجد ، وفى سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م زيد فى المسجد زيادة أخرى فى عهد موسى بن عيسى والى مصر من قبل هارون الرشيد ، ولقد كانت أكثر الأعمال أهمية فى العصر العباسى تلك التى أجراها فيه والى مصر عبد الله بن طاهر فى عهد الخليفة المأمون سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م واحتفظ المسجد منذ ذلك التاريخ بحدوده ومساحته التى ينحصر فيها اليوم ، اذ لم يزد فيه أحد من بعده شيئا •

وفى عصر الدولة الطولونية أمر خماوية بن أحمد بن طولون فى عام ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م بتعميره وتجديده عقب الحريق الذى أتلفه ••• وفى عصر الدولة الأخشيدية فى سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م نقش أكثر عمده وطوق ولم ينتصف القرن ٤ هـ/١٠ م الا والمسجد بلغ الغاية من الزخرف • فقد زاره الرحالة المقدسى البشارى قبل سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ووصفه بالفخامة وبانه حسن البناء وبجدرانه شىء من الفيسفاء على أعمدة رخام وهو أكبر من جامع دمشق وهو أعمر موضع بمصر •

وفى العصر الفاطمى توالت عليه أعمال الاصلاح والترميم والتجديد والاضافة ، وكانت أهم هذه الأعمال عمارة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى سنوات ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م ، ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م وفى سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م أمر الخليفة المنتصر بالله بعمل منطقة من الفضة فى صدر المحراب الكبير وجعل لعمده أطواقا من فضة • وفى سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م عملت للامام فى زمن الصيف مقصورة خشبية ومحراب من خشب الساج على أن

ترفع هـذه المقصورة فى الشتاء اذا صلى الامام فى المقصورة الكبيرة ، ويوضح ذلك اختصاص المحاريب المتنقلة التى اقتصر ظهورها على الدولة الفاطمية . ولقد بلغ هذا الجامع أوج ازدهاره خلال عصر الدولة الفاطمية يؤكد ذلك ما ذكره الرحالة ناصر خسرو الذى زار الجامع فى سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٨ م ووصفه وصفا رائعا .

وفى العصر الأيوبى أيضا بلغ هذا الجامع أوج ازدهاره ففى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى أصلح المسجد وذلك سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م، وكان المسجد فى نهاية العصر الفاطمى قد تخرب بسبب حريق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م أيام شاور وزير الخليفة الفاطمى العاضد .

وفى عصر المماليك البحرية جدد الجامع السلطان الظاهر بيبرس ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م .. ولقد تأثر المسجد من الزلزال الذى وقع سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م فقام باصلاحه الملك الناصر محمد بن قلاوون . وفى عصر المماليك البرجية فى سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م أجرى به الرئيس برهان الدين ابراهيم بن عمر رئيس التجار بعصر عمارة ، ثم عمره السلطان قايتباى سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م .

وفى العصر العثمانى أجريت به آخر عمارة من قبل الأمير مراد بك سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م فقد هدم داخل الجامع واعاد بناءه بسبب ميل أعمدته وسقوط أروقته فبنيت عقوده فى وضع غير وضعها الطبيعى فبعد ان كانت موازية لجدار القبلة أصبحت عمودية على جدار القبلة ونتج عن ذلك ان صارت أرجل العقود قاطعة للشبابيك فسدتها وبنى به مئذنتين هى الباقيتان الى الآن .

وفى عهد محمد على باشا أصلح المسجد وأعيدت فيه صلاة الجمعة ووقفت عليه أوقاف . وفى سنة ١٣١٧ هـ/١٨٩٩ م جددت سقوفه وقومت مبانيه . وفى عهد الملك فؤاد الأول أصلح رواق القبلة بالجامع وأجريت به الاستكشافات القيمة التى ألقت ضوءا جديدا على تخطيط هـذا الجامع .

وفى عهد الملك فاروق الأول أصلحت بعض عقوده ونقش محرابه •
وقد ذكر ناصر خسرو (٣٩٤ — ٤٥٣ هـ = ١٠٠٣ — ١٠٦١ م) فى رحلته الفسطاط ومسجد الفسطاط (مسجد عمرو) ، وذكر أنه كان يقيم بالمسجد المدرسون والمقرئون ، ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء •

وذكر الغرناطى على بن سعيد (٦١٠ — ٦٨١ هـ = ١٣١٢ — ١٣٨١ م) فى كتابه « الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط » أنه شاهد حلقات المتصدرين لقراءة القرآن والفقه والنحو فى جامع الفسطاط وأنهم يعيشون من غلة أوقاف محبوسة عليهم ، ويذكر من علمائها : القسطلانى ، كما يذكر شاعرها جمال الدين الجزار •

— ٢ —

وقد لبثت الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية منذ قيامها حتى الفتح الفاطمى عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، وفى ذلك العام بنيت القاهرة المعزية لتكون عاصمة مصر الفاطمية ، وبنى مسجدها الجامع الأزهر الذى أسس بعد تأسيس القاهرة بأشهر قلائل (جمادى الأولى عام ٣٥٩ هـ) ليكون جامعا وجامعة للدولة الجديدة • وقبل أن يبدأ الأزهر تاريخه العلمى الحافل والباهر ظلت الفسطاط بعد ذلك عصورا تحتفظ بمكانتها الأدبية ، ولبثت حلقاتها الأدبية المضيئة ، مع حلقاتها الاسلامية ، ذائعة الشهرة بين أدباء وعلماء الشرق والغرب •

ومنذ عهد العزيز بالله الفاطمى تحول الأزهر الى جامعة ، ثم قامت بجواره دار الحكمة التى نظمت مجالسها ، لتصبح مجالس علمية فلسفية وكلامية •

وفقدت الفسطاط أهميتها السياسية والرسمية ، ولكنها احتفظ

عصوراً أخرى بأهميتها الاجتماعية والأدبية . وفي فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الأدبي ، وهذا ما يشيد به بعض أدباء المشرق والأندلس الوافدين على مصر في عصور مختلفة ومن هؤلاء : أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الذي وفد على مصر في أوائل القرن السادس الهجري[1] في عهد (الأفضل شاهنشاه) ودرس الحركة الفكرية والأدبية في مصر يومئذ وكتب عنها رسالة لم يصلنا منها الا القليل الذي صور فيه الحياة الأدبية في الفسطاط في عهده ، مما يدل على مكانة الفسطاط العلمية والأدبية آنذاك[2] ، وفي كتاب « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الأندلسي كذلك حديث عن الأدب والأدباء في الفسطاط في المدة التي قضاها في مصر من عام ٦٣٧ هـ — ١٢٤٠ م ، فقد خصص في كتابه المذكور سابقا فصلا كبيراً للفسطاط عنوانه : « كتاب الاغتباط في حلى الفسطاط[3] » ، يتحدث فيه عن المدينة ، وزياراته لها واجتماعاته بأدبائها ، ولا سيما شاعرها الكبير جمال الدين أبي الحسن الجزار ، أشهر شعراء مصر في هذا العصر ، وما لقيه من كرم وفادته ، وشهده من رائع أدبه ، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ ، على ما يظهر شاباً في عنفوان شاعريته

---

(١) توفي أمية بن أبي الصلت الأندلسي سنة ٥٢٩ هـ .

(٢) توجد عدة صحف مخطوطة من هذه الشذور ، ذيل بها كتاب « أخبار سيبويه المصري » الذي ستأتي الاشارة اليه والمخطوط محفوظ بدار الكتب رقم (٣٥٤ تاريخ) ومما يدل على أن الشذور جزء من رسالة أمية بن أبي الصلت عن مصر هو اشارة ابن أبي أصيبعة اليها في كتاب مناقب الأطباء (ج ٢ ص ١٠٦) وكذلك اقتباس (ابن القفطي) منها في كتابه « أخبار الحكماء » (ص ٣٣٧) .

(٣) راجع هذا الكتاب في مجموعة الكتب التي يضمها كتاب « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الأندلسي ومعه أربعة مجلدات مخطوطة بدار الكتب هي الوحيدة منه وليست متصلة ولا متناسقة لأنها جزء من الكتاب الأصلي فقط (رقم ١٧١٢ تاريخ) وقد نشر المستشرق (تاكلفت) منه قسما هو « كتاب العيون الدعج في حلى بني طغج » .

لأنه توفى بعد ذلك بنحو أربعين سنة في (٦٧٩ هـ — ١٢٨٠ م)[١] وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الشهيرة المسماة « بالعقود الدرية فى الأمراء المصرية » وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو ابن العاص الى الملك الظاهر بيبرس[٢] ، وكانت الفسطاط قد عادت يومئذ فاستردت كثيرا من بهائها السالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الملكية الجديدة التى أنشأها الملك الصالح فى جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط (٦٣٨ هـ) واتخاذها قاعدة للسلطنة ، وانتقال البلاط والحاشية اليها ، وسكن كثير من الامراء والكبراء بالفسطاط فى الضفة المقابلة لنهر النيل ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد فى قوله ، « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية (جزيرة الروضة) ، وكثير من الجند قد انتقل اليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر » .

ويشير ابن سعيد فى كتابه السالف الذكر الى ليالى الفسطاط واجتماعاتها الشائعة فى الليالى القمرية ، وأشهرها ما كان يعقد فى « القرافة » مما يلى المقطم فى قبة الامام الشافعى التى كانت قد أنشئت على قبره ، وكان المسجد الجامع قد ضعفت أهميته شيئاً فشيئا منذ قام منافسه القوى ، الجامع الأزهر وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة ، ولكنا نراه ما يزال حتى القرن السابع مثوى للأدب واجتماعاته ، وبرغم عفائه وقدمه ونسيان أمره ، كانت تعقد فى عرصاته حلقات للقراءة والدرس ، وهو ما يشير اليه ابن سعيد أيضا خلال وصفه للمسجد الجامع فى منتصف القرن السابع ، بيد أن هذه الحلقات لم تكن من الأهمية والرونق والانتظام مثلما كانت عليه فى القرون الأولى يوم كان المسجد الجامع مجتمع الأمراء وأقطاب التفكير

---

(١) راجع ترجمة جمال الدين الجزار فى السيوطى : حسن المحاضرة (ج ١ ص ٢٧٢) وقد أورد له ابن سعيد أيضا ترجمة فى « المغرب » فى المجلد الثانى من المخطوط الورقة ١٤١ .

(٢) هذه الأرجوزة برمتها فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١) .

والأدب . وكانت يومئذ أقرب الى الصبغة المدرسية ومع ذلك فقد بقى للمسجد الجامع حتى ذلك العصر ــ كثير من ذكرياته الأدبية المجيدة حيث ظل كعبة الأدباء والشعراء يجتمعون فيه كلما سنحت فرص الاجتماع لعقد الأسمار والمطارحات الأدبية ، واليك نموذجا لهذه الاجتماعات الشهيرة أورده ابن فضل الله العمرى فى موسوعته الكبيرة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى حديثه عن المسجد الجامع .

« حكى على بن ظافر الأزدى قال : روى لى أن الأعز أبا الفتوح ابن قلاقس وابن المنجم اجتمعا فى منار الجامع فى ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون وبرز فى صفحة بحر النيل كالنون ومعهما جماعة من هواة الأدب الذين ينسلون اليه من كل حدب ، فحين رأوا الشمس فوق النيل غاربة والى مستقرها جارية ذاهبة وقد شمرت للمغيب الذيل واصفرت خوفا من هجمة الليل والهلال فى حمرة الشفق كحاجب الشائب أو زورق الورق فاقترحوا عليهما أن يصنعا فى ذلك الوقت النزيه على البديهة فصنع ابن قلاقس :

انظر الى الشمس فوق النيل غاربة
وانظر لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبقت شعاعا منه يخلفها
كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال ، فهل وافى لينقذها
فى إثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

وصنع ابن المنجم :

يارب سامية فى الجو قمت بها
أمد طرفى فى أرض من الأفق
حيث العشية فى التمثيل معركة
اذا رآها جبان مات للفرق

شمس نهـارية للغـروب زاهيـة
بالنيل مصفرة من هجمة الغسـق
وللهـلال انعطاف كالسـنان بدا
من سورة الطعن ملقى فى دم الشفق

« وحكى على بن ظافر أيضا قال : أخبرنى ابن المنجم الصواف بما معناه : قال صعدت الى سطح الجامع بمصر فى آخر رمضان مع جماعة فصادفت به الأديب الأغر أبا الفتوح بن قلاقس ونشوار الملك على بن مفرج بن المنجم وشجاعا المغربى فى جماعة من الأدباء فانضممت اليهم فلما غابت الشمس وفاتت ، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم أن يعملا فى صفة الحال فكان ما صنعه نشوار الملك :

وعشى كأنما الأفـق فيـه
لازورد مرصـع بنضـار
قلت لما دنت لمغربها الشمـ
ـس ولاح الهـلال للنظـار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينـ
ـارا فأعطى الرهين نصف سوار

وكان الذى صنعه ابن قلاقس :

لا تظن الظلام قد أخـذ الشمـ
ـس وأعطى النهار هـذا الهلالا
إنما الشرق أقرض الغـرب ديـ
ـنارا فأعطاه رهنـه خلخالا[1]

ونحن نعرف أن الشاعر المصرى الاسكندرى الأشهر (ابن قلاقس) كان من شعراء النصف الأخير من القرن السادس الهجرى (٥٣٢ — ٦٠٧ هـ) وكذلك ابن المنجم من شـعراء هذا العصر ، واذن فقد كان

(١) مسالك الأبصار ج ١ (طبع دار الكتب) ص ٢١ و ٢١١ .

المسـجد الجامع ، حتى أوائل القرن السـابع منتدى لأكابر الأدباء والشـعراء ، وكانت الفسطاط لا تزال شهيرة بلياليها وحلقاتها الأدبية ، حتى بعد ذلك بنحو نصف قرن على نحو ما يشـير اليه ابن سـعيد الأندلسى •

ومند أواخر القرن السابع الهجرى نرى الفسطاط تفقد أهميتها الاجتماعية والأدبية شيئا فشيئا ، ونرى المسـجد الجامع وقد غمره النسيان والعفاء ، وقلما نظفر فى سير القرن الثامن بما ينبىء عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الأدبية بل نرى الفسطاط فى هـذا العصر تنتهى الى ضاحية متواضـعة لمدينة القاهرة ونرى القاهرة تعد بعظمتها وبهائها واهميتها العلمية والأدبية عاصمة الاسـلام الأولى فى مصر ونراها مثوى كل حركة فكريه أو ادبية ونرى الجامع الأزهر كعبه العلمـاء والأدباء لا فى مصر وحدها بل فى العالم الاسـلامى كله ، على أن مؤرخ الآداب فى مصر الاسـلاميه لا يسعه حين يعالج تاريخ الآداب فى عصور الاسـلام الأولى الا أن يلاحظ اهميه الدور الكبير الذى أدته الفسطاط وحلقاتها ولياليها الأدبية ، وأداه مسجدها الجامع فى تطور الحركة الفكريه والأدبية فى مصر[1] •

— ٣ —

ومن المعروف أن عمرو بن العاص أتم فتح مصر فى سنة ٦٤١ وضرب خيمته بجوار مدينة القـاهرة الحالية ، والفسطاط معناها الخيمـة • ولكن التاريخ لم ينقل الينا معارف كثيرة عن تلك الحقبة التاريخيـة مع أنها كانت حاسمة جليلة الشـأن •

(١) كانت رسـالة الباحث على الدرير للدكتوراه فى كلية اللغـة العربية بالقاهرة عن الفسـطاط ومكانتها الأدبيـة ، وكنت مشرفا على هـذا الباحث ، وقد نال بهـا الدكتوراه مع مرتبـة الشرف الأولى ، وهى رسـالة قيمة يجب العناية بنشرها ، وقد انقطعت اخبار هـذا الباحث الجليل عنى بعد حصوله على الدكتوراه ، ولا ادرى أهو حى الآن أم فى عالم الخلود ؟

ثم بعد مضى ثلاثمائة سنة أسس الخليفة الفاطمى المعز لدين الله مدينة القاهرة ، واعتمد فى ذلك على قائده جوهر الصقلى ، وتأسس يومئذ الجامع الأزهر وأصبحت القاهرة عاصمة العالم الاسلامى وحملت مشعل الحضارة الاسلامية العربية .

وضعف شأن الفسطاط حتى سنة ١٩٦٥ اذ استطاعت بعثة من علماء الآثار أن تنبش عن معالمها وتخرج الى الوجود صفحات من تاريخها الجليل .

وتعاون على انجاز هذا المشروع مدة ٧٢ شهرا لفيف من علماء الآثار المصريين والأوروبيين والأميركيين ، أمثال السيد « سكانلن » أستاذ التاريخ فى جامعة برينستن بالولايات المتحدة ، والدكتور كوبياك من جامعة فارسوفيا ، والدكتور أوستراس من جامعة فارسوفيا أيضا .

وكانت نتائج هذه الأبحاث رائعة مدهشة ، بدليل ما قاله الأستاذ سكانلن مؤخرا اذ لاحظ أن « هذه الاكتشافات وهذه الكنوز الدفينة فى الفسطاط انما يجاوز شأنها كل ما عثر عليه حتى اليوم فى وادى الملوك » .

كانت فى الفسطاط منازل مركبة من ستة طوابق ، ولكل منها شرفة حافلة بأحواض الزهور . وكانت الشوارع عريضة يظللها الشجر ، وكانت دكاكين التجارة تتلألأ فى الليل بمصابيح وأنوار ، ولم يكن لتلك الانارة مثيل فى ذلك العصر .

وكان فى كل منزل حمام وأجهزة مطبخية أتقن مما عرفه اليونان أو أهالى روما . وكان الماء يصل الى المنازل من خلال تمديدات وأنابيب مصنوعة من الفخار ، كما أن المياه القذرة كانت تنصرف الى حفرات بعيدة .

وهكذا بعد انطماس دام ١٤ قرنا ، أوضح علماء الآثار معالم

الفسطاط وبينوا طريقة للمعيشة والعمـــل اليومى كان يتبعها أهاليها وكانت مجهولة حتى اليوم . وقدروا عدد سكان الفسطاط بنحو نصف مليون ، ومساحتها بنحو ٤٠ كيلومترا مربعا فى ذلك العصر .

والعالم الأثرى المشهور على بهجت ممن عنى بالفسطاط وكشف عن أجزاء كثيرة منها فى عامى ١٩١٢ ـــ ١٩١٣ م[١] .

* * *

---

(١) راجع ما كتبته عن الفسطاط فى كتابى « مواكب الحرية فى مصر الاســلامية » .

الفصـــل الثانى

جامع الفســطاط

— ١ —

جامع عمرو ، أو جامع الفسطاط ، أو الجامع العتيق ، أو جامع مصر ، هو أقدم جامع اســلامى بنى فى مصر ، بناه عمرو بعد الفتح مباشرة[1] • فى مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ عقب فتحه مصر • ويطلق على هــذا الجامع عدة أســماء منها : جامع عمرو ، أو المسجد الجامع ، أو الجامع العتيق ، أو تاج الجوامع ، وأحيــانا جامع مصر أو جامع الفسطاط •

ومنذ انشــاء جامع عمرو بن العاص وهو يمثل منارة مضيئة فى غرب العالم الاسلامى وفى قارة أفريقيا بأسرها • وسرعان ما صار جامعة اسلامية كبرى ، وظل كذلك حتى نهاية القرن الثامن للهجرة ولم يضعف من مكانته اســتيلاء الفاطميين على مصر وتأسيس الجامع الأزهر لنشر المذهب الشيعى •• وانما ظل جامع عمرو محتفظا بمكانته العلمية الكبرى الى جوار الأزهر •• وكان يجلس فيه علماء الســنة المعارضون لفكر الفاطميين الشيعة — وأصبح جامع عمرو مركزا للسنة فى مصر ••

عبد الله بن عمرو فى الجامع :

وكان أول من جلس للتدريس فى جامع عمرو هو عالم الاسلام الكبير الصحابى عبد الله بن عمرو بن العاص• فقد بعث به الخليفة عمر بن الخطاب ليقوم بتعليم الدين الاسلامى وبيان أحكامه وفضائله فى البلاد التى

---

(١) محمد ابراهيم — الأهرام ١٩٩١/٤/١

فتحها أبوه عمرو بن العاص • وكان عبد الله بن عمرو قد دأب على تدوين ما يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت له صحيفة سجل فيها ما سمعه من الرسول ، وسماها الصادقة ، وكان يقول : ليس بيني وبينه فيها أحد وكان عبد الله بن عمرو — وهو في مصر — كثيرا ما يرجع الى هذه الصحيفة اذا ما سئل وأراد التثبت قبل أن يجيب • ويذكر المؤرخون أن أهل مصر رووا عنه أكثر من مائة حديث نبوي •

وبمرور الزمن تكاثرت حلقات الدرس التي كان يتصدرها أئمة الصحابة والتابعين وكبار العلماء •• من هؤلاء كان الامام الليث بن سعد الذي كانت له حلقة كبيرة في جامع عمرو وقد ذاعت شهرته وفضله حتى ان الامام مالك بن أنس كان يقول عنه : حدثني من أرضى من أهل العلم •• وتتلمذ على الليث كثير من علماء الحديث منهم عبد الله ابن وهب وأشهب • وكان له مذهب خاص ذاع في مصر في حياته وقال الشافعي : إن تلاميذه لم ينهضوا به •

وكانت هذه الحلقات نواة صالحة تبشر بمولد جامعة اسلامية ومع مجيء القرن الثاني للهجرة كان جامع عمرو هو مجتمع الطلاب والمدرسين وملتقى الفقهاء والعلماء والأدباء ومنبع الافتاء ومراد الراغبين في الثقافة ••

وفي آخر القرن الثالث الهجري كان جامع عمرو أشبه ما يكون بمجموعة من الخلايا العلمية ، تدرس فيه مختلف المذاهب الفقهية فهناك للمذهب المالكي حلقات ، وللمذهب الحنفي حلقات ، وللمذهب الشافعي حلقات ••

فقد حضر الى مصر الامام محمد بن ادريس الشافعي ، وصار له حلقة كبيرة في الجامع ، وكثر تلاميذه كثرة غير عادية وفي هذه الحلقة أملى الشافعي مذهبه الجديد •• وكانت مناقشات ومناظرات حلقة

الشافعى توقظ الأذهان الى قيمة الجدل العلمى اذ كان المصريون قبل الشافعى على مذهب واحد ، وكانوا لا يهتمون بالمناظرة كما كان يهتم بها أهل العراق فلما درس الشافعى بالعراق ثم جاء الى مصر نقل المناظرة معه ، وكان يناظر بعض المصريين ليختبر علمهم ويستفيد منهم ، وكان يناظر العلمـاء الذين يخالفونه فى الرأى .

ومن العلمـاء الذين ألقوا الدروس فى جامع عمرو : أبو بكر بن الحداد المتوفى سنة ٣٤٤ هـ وكان عالمـا بالقرآن والحديث واللغـة والنحو وسير الجاهلية والشعر والنسب واختلاف الفقهاء وكان يلقب بفقيه مصر وعابدها وفصيحها .

عمت شهرة جامع عمرو الأفاق ، ويكفى أن أبا تمام الشاعر الكبير (١٨٠ — ٢٣١ هـ) تتلمذ فيه على حلقاته العلمية ، وان أبا نواس حين زار مصر كان يلازم المسجد .

ولمـا قدم المتنبى مصر فى عهد كافور الاخشيد وأقام فيها أربع سنوات كانت له حلقة فى جامع عمرو يجلس فيها وينشد شعره ويستمع الى رواته ومحبى شعره من رواة الأدب واللغـة والشعر .

أما محمد بن جرير الطبرى فقد تتلمذ على حلقات العلم فى جامع عمرو ثم جلس للتدريس فيه . والطبرى هو ذلك العـالم الذى ظهر فضله فى الفقه والتفسير والحديث واللغـة والنحو والشعر . وهو مؤلف (جامع البيان فى تفسير القرآن) والذى يقول عنه الامام السيوطى: كتاب الطبرى فى التفسير أجل التفاسير وأعظمها . وهو مؤلف تاريخ الأمم والملوك — وهو أول كتاب فى التاريخ العام ، أكمل به الطبرى ، ما ابتداه سـابقوه من التاريخ للأحـداث أو الأقاليم أو طبقات الرجال وللطبرى أيضا كتاب ذيل المذيل فى تاريخ الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وكتاب اختلاف الفقهاء وهو يذكر أقوال الفقهاء فى كثير من الأحكام الشرعيـة .

والحقيقة ان كتب الامام الطبرى — تلميذ جامع عمرو وأحد أساتذته — كثيرة وغزيرة وتنم عن ثقافة متنوعة وعلم متعمق وصبر على البحث والدرس والتأليف .. ويذكر المؤرخون ان حلقات التدريس فى جامع عمرو كانت سنة ٧٤٩ بضعا وأربعين حلقه لا تكاد تنفض منه ، وكان الجامع يستمد من عظمة مدينة الفسطاط مجدا ومنزلة فى جميع أرجاء العالم الاسلامى . وظل كذلك حتى نهاية القرن الثامن للهجرة حين انتهت منه الحلقات العلمية تماما وأصبح المسجد مقصورا على الصلاة .

— ٢ —

وحدث عن جامع عمرو ولا حرج ، لقد صار قبلة كل مسلم ، وقبلة كل انسان فى مصر ، يريد أن يعرف دين الاسلام ، دين التوحيد والعدل والاخاء والمساواة ، وأن يتعلم لغة القرآن اللغة العربية الفصحى .

لقد جلس فى حلقات المسجد الصحابة والتابعون يعلمون الناس أمور دينهم ، ويقضون فى الاسلام ويعلمونهم اللغة العربية القرشية .

ولم تلبث هذه الحلقات بعد قيامها بقليل أن تحولت الى جامعة كبيرة ، كانت هى الجامعة الأولى فى العالم الاسلامى كافة ، وفى مصر الاسلامية خاصة .

* * *

الفســطاط وجامعته

— ١ —

شيخ علماء جامعة الفسطاط ومؤسسها هو الصحابى عبد الله بن عمرو بن العاص المتوفى عام ٦٨ هـ — ٦٨٨ م .

وكان عبد الله أول من أقام الحلقات فى مسجد الفسطاط ، وجلس فيها ، وكانت حلقته العلمية أولى الحلقات فى هــذا المسجد الشامخ .

وكان الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص يدون أحاديث رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى حضرته وبإذن منه ، وذلك فى صحيفته الصادقة ، وقد قام الباحث محمد سيف الدين عليش بتحقيق وتوثيــق هــذه الأحاديث المروية فى كتب الســنة الستة ومســند الامام أحمــد .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يحمــل معه هــذه الصحيفة الصادقة ، أينما توجه ، وحملها معه فى رحلته الى مصر ، التى استقر بها ، وعاش فى رحابها وكانت حلقته فى مسجد الفسطاط حول هــذه الصحيفة الطاهرة .

وقد مات عبد الله ودفن فى مصر ، رحمه الله رحمة سابغة .

— ٢ —

قامت الحلقات العلمية فى جامع عمرو ، أو قل جامع الفسطاط ، منذ بنائه وافتتاحه للصلاة والعبادة .

وأخذت هــذه الحلقات مكانها فى الدراسات الاسلامية والعربية لبناء مصر أسلاميا وعربيا بعد الفتح الاسلامى لمصر بقليل ، وشارك

فى ذلك الصحابة وقواد الفتح ، ثم شاركهم التابعون ، بل والمصريون الذين امتلأت بهم رحاب المسجد العتيق ، كما امتلأت قلوبهم بحب العلم ومجالس العلماء ، وبدارسة المعرفة .. فها هو ذا عثمان بن سعيد المصرى (وكان مولى آل الزبير بن العوام) وهو من أصل قبطى ، ينبغ فى قراءات القرآن .. حتى اشتهرت احدى القراءات بالنسبة اليه .. ويصبح رئيسا للقراء بالديار المصرية كلها !

ومن أقصى البلاد جاء مصرى آخر .. أخميمى ، أصوله من بلاد النوبة .. أسمه ذو النون المصرى .. احتل مكانة كأحد رؤوس الصوفية ..

وكان هذا أول الغيث .. وبعده كثر هؤلاء الأفذاذ من المصريين ..

كما لم تبق الحركة العلمية فى فسطاط مصر وقفا على علوم الدين .. فلم تلبث أن تنوعت مجالات البحث فيها .. وبرزت بصفة خاصة فى مجال التاريخ ، حيث قدمت المدرسة المصرية مجموعة كبيرة من أعلام المؤرخين الذين اختصوا تاريخ مصر بصفة خاصة بأكبر جهدهم .. وأسسوا ما عرف بتاريخ الخطط الذى يؤرخ لتاريخ البلدان مرتكزا على عمارتها وتقسيماتها الجغرافية .. وكثرت أسماء أعلام هذه المدرسة : كابن عبد الحكم ، وعباد بن وسيعة المصرى ، وابن يونس المصرى ، وابن زولاق ، وغيرهم ..

ثم تنوعت الدراسات وتشعبت ، ولم يبق جامع عمرو العتيق هو مكان العلم الوحيد .. وانما شاركه كثير من المراكز الأخرى فى جامع ابن طولون وغيره من المساجد .. ثم فى سوق الوراقين فى الفسطاط ، وفى دور الوزراء كدار الوزير أبى على الحسين بن محمد المادرائى ، ودور الأمراء كدار أبى القاسم أونوجور ، ودار كافور ، وغيرهم من سراة مصر عندئذ ..

وكانت هذه الحياة العلمية الخصبة مما يدهش حتى كبار العلماء

من الرحالة الذين كانوا يفدون الى مصر .. فقد زارها « المقدسى » فى آواخر القرن الرابع .. وكتب انطباعاته عنها فى « أحسن التقاسم .. » فقال :

(وبين العشاءين القراء جامعهم مقتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة . دخلته مع جماعة من المقادسة فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوروا وجوهكم الى المجلس ، فننظر فاذا نحن بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد أى الحلقات .. وعددنا فيه مائة وعشرة مجلسا ..) .

* * *

الجامعة الأولى فى مصر الاسلامية

— ١ —

لقد دخلت مصر فى الاسلام ، واستظلت بلوائه ، وحملت راية العروبة لأول مرة ، منذ فتحها القائد العربى المسلم عمرو بن العاص عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م • وبفضل عبقرية هـذا القائد العظيم انتهى حكم الرومان لمصر ، هـذا الحكم الاستعمارى المدمر ، ومات هرقل الامبراطور الرومانى وقد شاهد هزيمة جيشه ، وانحسار نفوذ امبراطوريته ، وضياع مستعمراتها ، ودانت مصر كلها بالطاعة للحكم الاسلامى ، مرحبة بانتهاء العصر المظلم الذى أورث بنيها الفقر والهوان •

وبنى عمرو عقب الفتح مدينة الفسطاط لتكون العاصمة الاسلامية الأولى عام ٢١ هـ ، واتخذ الأماكن التى نزل بها جيشه معسكرا عاما • وبنى المسجد وبنى حوله مدينة الفسطاط ، التى توسطها المسجد الجامع ، وأخذ يرفع الظلم عن كاهل المصريين ، ويعاملهم بالعدل والانصاف والرحمة ، وأكبر المصريون شريعة عمرو ولغته ودينه ، فدخلوا فى الاسلام أفواجا •

ويحدثنا التاريخ أن عمرو بن العاص (٤٧ ق • هـ — ٤٣ هـ) بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة معاوية بن خديج ، بشيرا بالفتح ، فى المحرم ، فقدم المدينة وقت الظهيرة والحر الشديد ، فأناخ راحلته أمام المسجد النبوى ، ثم دخله ، فبينما هو جالس فيه ، اذ خرجت طفلة من منزل عمر بن الخطاب ، يقول معاوية : فرأتنى شاحبا ، وعلى ثياب السفر ، وقالت : من أنت ؟ • فقلت : أنا معاوية رسول عمرو ابن العاص ••

فانصرفت الطفلة عنى ، ثم أقبلت تعدو ، حتى لأسمع حفيف ازارها على ساقها ، حتى دنت منى ، ثم قالت : قم فأجب أمير المؤمنين ، فتبعتها ،

فلما دخلت المنزل اذا بعمر يتناول رداءه باحدى يديه ويشد ازاره باليد الأخرى ، فقال : ما عندك ؟ •

قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية ••

فخرج معى الى المسجد ، وقال للمؤذن : أذن ، الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لى : قم فأخبر أصحابك ، فقمت فخطبت فيهم ، ثم صلى ودخل منزله ، واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ، ثم جلس • وطلب الطعام ، فقدم خبز وزيت ، فقال : كل فان المسافر يحب الطعام ، ولو كنت آكلا لأكلت معك ، فأكلت على حياء ، ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال ، قلت : أمير المؤمنين نائم ، قال : بئس ما ظننت ، لئن نمت النهار لأضيعن الرعية • ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية !!

وكان عمرو بن العاص مع هذه الدنيا المقبلة ، والسعادة الغامرة ، والسلطة النافذة ، أسبق الناس الى حق ، وأبعدهم عن باطل ، لم يعهد عليه أثناء ولايته على مصر نقض لعهد ، ولا خفر لذمة ، ولا انتهاك لحرمة • وقد نهض بادارة شئون مصر ادارة حازمة رشيدة ، دستورها مبادىء الاسلام ، وشعارها الحق والعدل والمساواة والحرية •

وأخذت الفسطاط تتسع وتزدهر ، وصارت منذ انشائها عام ٢١ هـ : ٦٤٢ م عاصمة مصر السياسية ، ومنارة الدين واللغة العربية والمعرفة والثقافة ، ومقر العمران والحضارة والرخاء أجيالا طوالا •

وكان مسجد الفسطاط (أو مسجد عمرو بن العاص ، أو تاج الجوامع ، أو الجامع العتيق ، أو مسجد الراية) هو أول مسجد قام فى مصر العربية ، وكان هو بعد قليل مقر جامعة الفسطاط الاسلامية الكبرى •

وكانت المساجد الكبرى فى العواصم الاسلامية ، لا تلبث بعد انشائها بقليل ، أن تتحول الى جامعات تغص بالعلماء وحلقات العلم

والدراسة والبحث ، وبالطلاب ، وفى المدينة ومسجدها النبوى قامت أول جامعة اسـلامية ، ثم قامت فى مكة وفى المسجد الحرام بعـد ذلك جامعة أخرى ، وفى دمشق والفسطاط والبصرة والكوفه ، قامت جامعات اسـلامية مزدهرة .

وكذلك قامت فى القيروان وقرطبة وفاس ، وغيرها من العواصـم الحضارية الجديدة المنتشرة فى شرق العالم الاسـلامى وغربه جامعات جديدة تقيم صروحا شامخة للثقافة والمعرفة والحضارة ، فرأينا بعـد القرون الأولى جامعة الأزهر ، والقرويين والجامعة النظامية والمستنصرية فى بغـداد ..

ولقد أشرف على بناء المسجد الجامع والفسطاط أربعة من الصحابة ، هم : أبو ذر الغفارى ، ونهية بن صواب البصرى ، ومحشمة بن حمزة ، وأبو بصرة .

ومع أن عبد العزيز بن مروان ، الحاكم الأموى على مصر ، بعـد اسـتردادها من أيدى الزبيريين « ٦٥ ــ ٨٦ هـ » ، قد بنى حلوان ، وانتقل من الفسطاط اليها ، ومع أن العباسيين أنشأوا مدينة العسـكر عام ١٣٥ هـ شمالى الفسطاط ، ومع انشاء أحمد بن طولون لمدينة القطائع عام ٢٥٤ هـ ــ فان الفسطاط لم تتغير منزلتها السياسية والعلمية والأدبية ، ولم تهبط مكانتها بحال من الأحوال ، وحين دخل الفاطميون مصر نظروا الى الفسطاط على أنها العاصـمة السنية لمصر ، فأداروا لها ظهورهم ، وأنشـأوا القاهرة المعزية لتكون العاصـمة السياسية والروحية لهم ، ولتكون صورة لعقيدتهم الشيعية وخلافتهم العلوية .

يحدثنا التاريخ أن المعز لمـا وصل مصر فى أوائل رمضـان عام ٣٦٢ هـ خرج أعيان الفسطاط وأشرافها وعلماؤها لاستقباله فى الجيزة ، واستعدت الفسطاط لاستقباله ، وسار موكبه من الجيزة ، ثم جاز النيل الى الشاطىء الشرقى ، وأبى أن يدخل الفسطاط ، وجعلها وراء ظهره ،

وأمر موكبه بالاتجاه الى عاصمته الجديدة التى سميت « المنصورية » ، ثم صدر أمر المعز فى ذلك الحين بأن تسمى القاهرة المعزية ، وقد جمع المعز أشراف الفسطاط من العلويين ، وفى مقدمتهم أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى وأبو اسماعيل ابراهيم بن أحمد الحسينى الرسى ، وأحد أبناء الشريف أبى محمد بن طباطبا العلوى ، وسل أمامهم سيفه ، وقال : هذا نسبى ، ثم نثر عليهم ذهبا كثيرا ، وقال : هذا حسبى ...

ولقد ازدهرت الفسطاط[1] بتوالى الايام ، وصارت العاصمة الحضارية والعلمية والأدبية والاقتصادية لمصر كلها خلال أجيال عديدة ، وصارت من أكثر الأمصار الاسلامية عمرانا ، ورخاء وعظمة .

أقام عبد الله بن عمرو بن العاص داره فى الفسطاط على صورة الكعبة الشريفة ، وكان عبد الله المتوفى عام ٦٨ هـ ، من جلة العلماء والمحدثين ، وكانت دار الأمير الأموى عبد العزيز بن مروان « وهو والد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى العادل » فى الفسطاط من ستة طوابق أو أدوار ، وفيها خمسة مساجد وحمامان .

— ٢ —

وقد جلس الصحابة والتابعون فى مسجد عمرو ، يتصدرون الحلقات العلمية ، ومجالس العلم ، وشجع ولاة مصر العلماء على نشر الثقافة العربية فى كل مكان من أرض مصر ، وأنشئت المساجد وأصبحت حلقاتها دورا للثقافة ، يتصدرها المحدثون والفقهاء والعلماء .

---

(١) كان من الرواد فى الكشف عن معالمها الأثرية المصرى على بهجت (١٨٥٨ — الجمعة ٢٨ مارس ١٩٢٤) ، حيث نقب عن الفسطاط ، وكشف عن حى كبير من احيائها ، وعثر على آثار نادرة .. وهو الذى كشف عقد زواج مينو من زبيدة الرشيدى حيث عثر على صورته فى محكمة رشيد الشرعية عام ١٨٩٨ ؛ وله كتاب عن الفسطاط صدر فى باريس عام ١٩٢١ بالفرنسية . وقد رثاه امير الشعراء شوقى .

واستمرت الفسطاط تؤدى دورها الحضارى فى تاريخ مصر والعالم الاسلامى والانسانية كلها ، حتى ليصفها الاصطخرى فى القرن الرابع الهجرى بأنها مدينة مصر العظمى ، وبأنها فى غاية العمران والخصب ، وبأن مبانيها قد تبلغ الواحدة منها ثمانى طبقات ... وينوه كذلك ابن حوقل بأهميتها الحضارية ، ويقول عنها المقدسى : إن الفسطاط هى « عاصمة » مصر ، ومفخرة الاسلام ، ومتجر الأنام . وهى أجل من مدينة السلام ، ويقول : إن حلقات (أى دروس) مسجدها الجامع ليس فى عواصم الاسلام أكبر منها — ومع أن الفسطاط دمرها حريق مروع فى عهد الحاكم الفاطمى ، ثم أحرقها شاور الوزير الحاكم فى مصر عام ٥٦٤ هـ لئلا تقع فى أيدى الصليبيين ، وقد استمر هذا الحريق المدمر أربعة وخمسين يوما[1] ، مما جعل المدينه تفقد شيئا فشيئا الكثير من أهميتها الحضارية والفكرية — الا أنها أخذت تضمد جراحها ، وتستمر فى أداء دورها ، حتى نهاية القرن السابع الهجرى ، فلا نجد لها فى القرن الثامن صدى أو ذكرا ، ومع أن اتخاذ المماليك للروضة مقرا لهم ، قد أضفى على الفسطاط المقابلة للروضة شيئا من الحياة ، ألا أن هـذا لم يجعلها تقف على قدميها كما كانت من قبل .

لقد ترك الفاطميون الفسطاط لشأنها ، ولكن صلاح الدين والأيوبيين أقبلوا عليها بكل عطف وتقدير ، ثم جاء المماليك فاهتموا بالروضة واكتفوا بها عن غيرها ، الا أن مواجهة الفسطاط للروضة جعل الحياة تتدفق فى شرايينها شيئا قليلا ، حتى أصابتها الشيخوخة وحطمتها . ولقد زارها ابن سعيد الأندلسى عام ٦٣٧ هـ وتحدث عن شهرتها وماضيها العظيم ...

— ٣ —

لقد قام مسجد الفسطاط بدور الجامعة الاسلامية الأولى فى مصر نحو سبعة قرون ، وعاشت هـذه الجامعة العلمية الكبرى فى ظلال

---

(١) راجع كتابى « مواكب الحرية فى مصر الاسلامية » .

ازدهار الفسطاط وعمرانها ورخائها ، حتى اذا دمرت الفسطاط ، وضاعت مكانتها الحضارية والفكرية والأدبية ، وأصابها الشلل ، والشيخوخة ـ انتهى دور هذه الجامعة التى خدمت الاسـلام والمسلمين أجيالا طوالا ، بل خدمت العلم والانسانية كافة طيلة سبعة قرون •

وكان قيام الحلقات العلمية والأدبية فى جامع الفسـطاط ، بعد انشـائه بقليل ، رمزا لحركة البنـاء والتجديد وطموح العقل الاسلامى المصرى المتوثب دائما •

وأعتقد أن عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل ، وابن أمير مصر عمرو بن العاص ، كان هو المؤسس الأول لهذا الصرح الشامخ ، ولهذه الجامعة الاسـلامية الأولى فى مصر ، وكان عبد الله من أئمـة الصـحابة والمحدثين ، ولا بد أن يكون قد صارت له حلقة علمية فى جامع الفسطاط ، يتصدرها ليفيد الناس فى دينهم ودنياهم ، من حيث يرى الدكتور على اليمنى دردير فى رسالته المخطوطة للدكتوراه والتى عنوانها « الحياة الأدبية والنقدية فى الفسطاط ومسجدها الجامع » أن يزيد بن حبيب الذى بعث به عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الى الفسطاط هو مؤسس مدرسة الفسطاط العلمية ، وهذه الرسالة القيمة جديرة بأن تتبنى هيئة من هيئاتنا العلمية نشرها لأهميتها •

إن عبد الله بن عمرو بن العاص كان بمثابة الروح الباقى للحلقات العلمية الجامعية فى جامعة الفسطاط ، وقد أخذت هذه الحلقات تكبر وتنمو شيئا فشيئا ، وتتسع دائرتها ، وتفيد العقل المصرى الاسـلامى الجديد فائدة جلى • ويكون يزيد بن حبيب تاليا لعبد الله بن عمرو بن العاص فى ذلك المجال ، ويذكر الدكتور دردير نصا للسيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » « ١/١١٩ » هو أن يزيد بن حبيب كان « أول من أظهر العلم بمصر ، وبين المسـائل فى الحرام والحلال وكان الناس قبله يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن » ، وكان الخليفـة

الأموى عمر بن عبد العزيز قد بعث به الى مصر ، كما بعث كذلك بنافع مولى عبد الله بن عمر « المتوفى عام ١٢٠ هـ » ليعلم أهلها السنن والقراءات ، وقد صار لنافع مدرسة علمية فى القراءات فى جامعة الفسطاط وكان من أعلامها الثقات فى القراءات ، ثم تلاه عثمان بن سعيد « ورش » الذى يذكر ياقوت فى « معجم الأدباء » أنه كان له مجلس عامر .

ومن مدرسة الحديث عطاء بن دينار الهذلى « المتوفى عام ١٢٠ هـ » وهو بالطبع يعد امتدادا لفكر عبد الله بن عمرو بن العاص . ومن تلاميذ يزيد بن حبيب : ابن لهيعة « ٩٦ ــ ١٦٠ هـ » ، والليث بن سعد « ٩٤ ــ ١٧٥ هـ » ، وعبد الله بن وهب « ١٢٤ ــ ٢٠٠ هـ » الذى تأثر بآراء أستاذه الليث بن سعد بطريق مباشر ، وبآراء ابن حبيب بطريق غير مباشر .

وكان الامام أحمد بن حنبل يقول عن « ابن لهيعة » : عنده الأصول وعندنا الفروع » ولابن وهب كتاب « الجامع فى الحديث » ، والليث بن سعد هو أحد المجتهدين الأعلام وصاحب مذهب من المذاهب المشهورة . وكتاب تلميذه ابن وهب « الجامع فى الحديث » أقدم كتاب مصرى مخطوط بدار الكتب المصرية ، وعليه ما يفيد أن الكتاب قرىء فى مدينة اسنا عام ٢٧٦ هـ كما ورد فى « حسن المحاضرة » للسيوطى « ١٦٨/١ » .

وهكذا ازدهرت حركة جامعة الفسطاط « جامع عمرو » العلمية ، وزادت فيها مجالس العلم ، وحلقات العلماء زيادة كبيرة ، وأم هذا المسجد الجامع أو الجامعى الكثير من العلماء الاعلام ، والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الاسلامى ، وأدوا له خدمات صادقة فى مجال الثقافة والتعليم ، وفى مختلف علوم الشريعة والدين واللغة والأدب والعلوم الأخرى .

وقد قصد الكثير من الشــعراء مصر ، ووفدوا الى الفســطاط وجلسوا فى حلقات جامعتها الاســلامية الكبرى ... أبو تمام الطائى « ١٩٠ — ٢٣١ هـ » تعلم فى هــذه الحلقات ، وأبو نواس وفد على الخصيب أمير مصر، وجلس فى حلقات المسجد الجامع وافاد منها .

وفى رحاب هذه الجامعة لقى الكثير من الشــعراء والأدباء والنقاد وحاوروهم وحاوروه ، ومن قبل ذلك ، ومن بعد ذلك وفد على مصر وفسطاطها ومسجدها الجامع : جميل ، وكثير ونصيب ، وأيمن بن خريم الأسدى ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وكان الفرزدق قد عزم على زيارة مصر وواليها عبــد العزيز بن مروان ، لولا أن جاءه نعى الأمير عام ٨٦ هـ .

ولمــا وفد الامام الشــافعى الى مصر عام ١٩٨ هـ وأملى فيهــا مذهبه الجديد ، كان مسجد عمرو أو جامعة الفسطاط ، مركز نشاطه العلمى الدينى ، حيث صارت له حلقة فيه ، وفى زاوية منه كان يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الذين دونوا المذهب ، ونشروا علم أســتاذهم ، كالربيع بن سليمان المرادى « عام ١٧٤ — ٢٧٠ هـ » ، والبويطى « ٢٣١ هـ » ، والربيع الجيزى الذى ينسب اليه جمع كتاب الأم وترتيبه بعد البويطى وسعيد بن عفير « ١٤٦ — ٢٢٦ هـ » ، والحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر « ١٧٠ — ٢٥٨ هـ » .

وكان عبد الله بن طاهر أمير مصر يجعل سعيد بن عفير ثالث عجائب مصر بعد الهرمين والنيل :

ومن جامعة الفسطاط انتشر مذهب الشــافعى على أيدى تلاميذه ، ومن قبل كانت الســيادة للمذهب المــالكى الذى كان أول من أعلنه فى مصر ونشره فيها عثمان بن الحكم الجذامى ، ومن شيوخ المــالكية

فيها أصبغ بن الفرج ، كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفى فيها على يدى القاضى اسماعيل بن سميع الكندى ، الذى ولاه العباسيون عام ١٦٤ هـ قضاء مصر ، فعمل على نشر مذهب أبى حنيفة فيها . أما الحنابلة فكانوا قليلين .. ومن علماء مسجد عمرو كذلك اسحاق بن الفرات تلميذ الليث بن سعد « توفى عام ٢٠٤ هـ » ، وقال عنه الشافعى : ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس ، وكذلك اسحاق بن بكر « ــ ٢١٨ هـ » ، وكان يجلس فى حلقة الليث ويفتى بقوله ، والطحاوى واليه انتهت رياسة الأحناف فى مصر « ٢٣٩ ــ ٣٢١ هـ » ، وبكار بن قتيبة من قضاة مصر الأحناف « ٢١٠ ــ ٢٧٠ هـ » .

وقامت فى جامع عمرو حلقة تاريخية تصدرها محمد بن اسحاق صاحب السيرة « ــ ١٥١ هـ » ، ثم عبد المطلب بن هشام راويته ، ومحمد بن أبى الليث ، كما وفد عليها ابن جرير الطبرى ، وكذلك المسعودى ، وتصدر هذه الحلقة المؤرخون المصريون ، مثل ابن عبد الحكم المصرى مؤلف كتاب « فتوح مصر » « ١٦٩ ــ ٢٥٦ هـ » ، ووالده عبد الله بن الحكم « ١٥٠ ــ ٢١٤ هـ » ، والكندى ، وابن يونس « ٢٨١ ــ ٣٤٧ هـ » وعمار بن وسيعة المصرى « ٢٨٩ هـ » ، وابن الداية صاحب كتاب « المكافأة » ، وابن زولاق المصرى « ٣٠٦ ــ ٣٨٧ هـ » الذى ولد بالفسطاط .

وكان للمعتزلة كذلك حلقة فى مسجد عمرو زعيمها ابن صبيح ، ومنهم أبو عمران موسى بن رباح الفارسى المتكلم ، وسيبويه المصرى « ٢٨٤ ــ ٣٥٨ هـ » ، وأبو على بن محمد العاصى الواسطى الذى كان من زعماء المتكلمين المعتزليين فى مصر .

ومن مدرسة اللغويين النحويين الأدباء فى جامعة الفسطاط : ابن ولاد « ــ ٢٣٢ هـ » شيخ العربية فى مصر كما يقول السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة « ١/٢٢٨ » ، وأحمد بن يوسف بن الداية صاحب

كتاب « المكافأة » وقد توفى بعد عام ٣٣٠ هـ ، والحسن بن داود بن بابشاذ المصرى النحوى المشهور « ــ ٣٣٩ هـ » ، وأبو جعفر النحاس « ــ ٣٣٨ هـ » ، والادفوى النحوى المفسر « ــ ٣٨٨ هـ » .. ويروى ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » أن الطلاب المصريين فى جامع عمرو سألوا ابن جرير الطبرى « ــ ٣١٠ هـ » أن يملى عليهم شعر الطرماح ، وكانوا لا يعرفون شيئا منه ، وكان ممن سأله فى ذلك على بن سراج المصرى ، فأجابهم الى طلبهم ، وأخذ يمليه عليهم ويفسر غريبه « ٦/٣٤٣ معجم الأدباء » .

ومن العلماء الأجلاء أبو بكر بن الحداد « ٢٦٥ ــ ٣٤٥ هـ » . وكان كما يقول السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » « ١/١٢٦ » يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها ، وكان يدرس فى جامع عمرو .

وقد وفد على مصر أبو العباس الناشىء الأكبر « ــ ٢٩٣ هـ » والقى آراءه فى الشعر والنقد فى مسجد عمرو .

وقد تصدر حلقات العلم فى هذه الجامعة الكبيرة بعض الوزراء ، من مثل أحمد بن يحيى الوزير ، وابن سليمان التجيبى« ١٧١ ــ ٢٥٠هـ »، وكان له مجلس عام بجامع عمرو ، وقد صحب الشافعى حين وفد الى مصر ولازم حلقته العلميــة فى هذه الجامعة « جامعة الفسطاط » ، ولازمه ، وأخذ الكثير عنه ، كما يقول السيوطى فى كتابه « بغية الوعاة » ــ ص ١٧٤ ، متخذا فى ذلك سنن أستاذه الخالد ، الامام الشافعى الذى كان يجلس فى جامع عمرو يلقى فيه دروسه العلمية الحافلة حتى استأثرت به رحمة الله ، وكان أعرابى يتردد على حلقة الشافعى فى مسجد عمرو ، فجاء بعد موت الشافعى ، فلم يجد قمر هذه الحلقة ، فقال للطلاب الذين يجلسون فيها : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ فقالوا : توفى الى رحمة الله ، فامتلأت عيناه بالدموع ، وقال : رحمه الله وغفر له ، لقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويوسع بالرأى أبوابا مسدودة .

وكما كان أبو نواس من قبل « ١٤٥ — ١٩٨ هـ » يجلس فى حلقة خاصة فى جامعة الفسطاط ، ويتخذ له مجلسا أدبيا فى المسجد الجامع ، ويلتف حوله الشعراء والأدباء والنقاد ، أثناء اقامته فى مصر ، كان كذلك يفعل أبو الطيب المتنبى أثناء اقامته فى الفسطاط « ٣٤٦ — ٣٥٠ هـ » ، يجلس فى حلقة خاصة فى جامعة الفسطاط وحوله الشعراء والنقاد والأدباء يملى وينشد شعره لهم ، ويستمع لنقدهم ، ويحاججهم ويحاجونه ، وكان ممن أخذوا ينقدون شعره : الوزير ابن حنزابة وزير كافور الأخشيدى « — ٣٥٧ هـ » لأن المتنبى أبى أن يمدحه ، وكذلك سيبويه المصرى أبو بكر محمد بن موسى الصيرفى ، وسواهما .

وكان هناك فى حلقة مسجد الفسطاط لفيف من الشعراء يبدون اعجابهم الشديد بالمتنبى وشاعريته ، ومنهم : عبد الله بن محمد بن أبى الجوع ، وصالح بن رشدين الكاتب ، وابن طباطبا العلوى المصرى وسواهم .

وهكذا تعددت الحلقات وتنوعت فى جامعة الفسطاط وتصدرها كبار العلماء والأدباء والمفكرين والنقاد ، وخرجت هذه الحلقات أجيالا عظيمة من الباحثين والمتخصصين عاما بعد عام ، مما أمد مصر بهالة من الجلال ، وجعلها تتصدر أمم العالم الاسلامى فى حمل رسالة الدين والثقافة والحضارة ، حتى لقد سبقت بغداد فى هذا المضمار .

— ٤ —

استمرت جامعة الفسطاط تؤدى دورها الحضارى فى بناء الانسان المصرى العربى طيلة أيام الولاة الأمويين والعباسيين . وبفضل هذه الجامعة أصدر أمير مصر الأموى عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمرا رسميا عام ٨٧ هـ بأن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة .

وازدهرت الحلقات العلمية فى هذه الجامعة فى عهد الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) والأخشيديين (٣٢١ — ٣٥٨ هـ) .

وانتقلت الدولة الى الفاطميين من عام ٣٥٨ هـ/٩٦٨ م واستمرت فى أيديهم قرنين كاملين أو يزيد ، حتى عام ٥٦٧ هـ/١١٧١ م .

وشيد الفاطميون الأزهر ، وافتتح فى رمضان من عام ٣٦١ هـ ، ولم يلبث ان اقيمت الحلقات العلمية فيه ، وصار جامعة اسلامية ثانية فى مصر ، ثم أقام الحاكم الفاطمى دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة ، عام ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م ، التى نافست الأزهر أيضا فى رسالته العلمية الجامعة ، ومع ذلك كله فقد كانت مكانة الفسطاط وجامعة الفسطاط قوية ضخمة ، لم تتأثر بالعواصف السياسية الهوج ، فاستمرت جامعة الفسطاط فى مسارها العلمى ، فالحلقات العلمية والعلماء والطلاب ، ظلت كما هى ، وظل التدريس فى مسجد عمرو طويلا .

وكما كان ابن حنبل يقول لطلابه فى بغداد : « ان بمصر أى الفسطاط صحيفة فى التفسير رواها على بن طلحة الهاشمى عن ابن عباس، لو رحل رجل منكم الى مصر ليطلع عليها ما كان هذا كثيرا » ، وكان الشريف الرضى (٣٥٩ — ٤٠٦ هـ) فى بغداد يقول :

ما مقامى على الهوان وعندى   مقول صارم وأنف حمى
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى   وبمصر الخليفة العلوى ؟ .

وكان الشعراء فى العالم الاسلامى يهتفون لمصر وحلقاتها العلمية ، وجامعاتها الفسطاط ، والأزهر ، ودار العلم ، وهم يقولون :

أسكان مصر جاور النيل أرضكم   فاكسبكم تلك الحلاوة فى الشعر

وظل مسجد الفسطاط الجامعى منتدى لأهل الفضل والأدب ، وحمل لواء الثقافة الاسلامية العربية خافقا عاليا ، كما كانت الفسطاط مدينة حضارية ذات منزلة علمية وفكرية وأدبية واقتصادية رفيعة .

واذا كان الجامع الأزهر قد أخذ ينافس المسجد الجامع الجامعى فى الفسطاط فى حلقاته العلمية ومجالسه الأدبية ، كما أخذت دار الحكمة

تنافسهما معا ، حيث صارت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية ، فان الفسطاط وقد فقد رعاية الدولة لم تضعف قوته ، ولم تلن قناته ، واحتفظت جامعة الفسطاط بأهميتها وبطابعها الدينى والأدبى معا ، وفى فترات ضعف الخلافة الفاطمية كانت الفسطاط وحلقاتها العلمية تتفوق على القاهرة ، مما تحدث عنه الكثير ممن زاروا مصر من العلماء والرحالة المسلمين ، من مثل أمية بن عبد العزيز بن ابى الصلت « ٤٥٩ هـ » الذى وفد على مصر ودرس الحركة الأدبية والفكرية فيها ، وكتب عنها رسالة بقى منها صفحات قليلة هى التى وصلتنا ، تحدث فيها ابن أبى الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها ، ومجالسهم الفكرية والأدبية • وكانت الفسطاط آنذاك أيضا من أغنى الأمصار الاسلامية ، وأكثرها رخاء •• وقد وصفها القاضى محمد بن سلامة القضاعى « ٤٥٤ هـ » فى القرن الخامس فقال ان فيها من المســاجد ستة وثلاثين ألف مســجد ، ومن الحمامات ألفا ومائة وسبعين حماما ، ومن الشــوارع المسلوكة ثمانية آلاف شارع ، وأسواقها عامرة وهى عامرة بالمنازل الشاهقة ، وفيها دار عبد العزيز بن مروان ، وفى داخل هــذه الدار خمسة مساجد وحمامان ، أما بضاعة العلم فى الفسطاط فكانت أغلى البضائع وأنفسها •

وفضلا عن الأسواق التى كانت للكتب فقد كانت صناعة النسخ واسعة النطاق يعيش منها آلاف من المشتغلين بالعلم ، وحلقات العلم تعقد فى المساجد ، وكان جامع عمرو ، الذى يسمى تاج الجوامع ، مكان التحديث والتدريس من عهد الصــحابة الى زمن الأئمــة ، وفيه كانت حلقات الامام الليث بن ســعد والامام محمد بن ادريس الشافعى •

واستمرت هذه الحلقات العلمية كل يوم بلا انقطاع فى جامع عمرو ، وكانت لا تقــل عن بضع وأربعين حلقة فى عام ٧٤٩ هـ ، كما يقول السيوطى فى « حسن المحاضرة » (٢/١٣٦) •

وأحرقت الفسطاط فى عهد الحاكم ثم فى عهد شاور عام ٥٦٤ هـ ، وفى الحريق الثانى محيت هــذه المدينة الاسلامية بما فيها من ذكريات ومكتبات ومدارس ومعاهد علمية ومع ذلك أخذ الناس يعمرون الفسطاط فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ويسكنونها ، ويقيمون فيها ، وينظمون الحلقات العلمية والأدبية من جديد فى مسجدها الجامع .

وفى القرن السابع وفد ابن سـعيد الأندلسى الى الفسطاط عام ٦٣٧ هـ ، ووصفها فى كتاب (المغرب فى حلى المغرب) الذى أفرد منه فصلا كبيرا عن الفسطاط بعنوان « الاغتباط فى حلى الفسطاط » وقد نشر فى مصر ، تحدث فيه عن المدينة وأدبائها ، وشاعرها أبى الحسن الجزار (ــ ٦٧٩ هـ) ، وكانت الفسطاط قد استردت الكثير من بهائها السالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيام المدينة الجديدة التى أنشأها الملك الصالح فى جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط سنة ٦٣٨ هـ ، واتخذها عاصمة له . فسكن كثير من الأمراء والكبراء بالفسطاط فى الضفة المقابلة للروضة . وظل مسجد عمرو برغم عفائه وقدمه ونسيان أمره عامرا بحلقات العلم والدرس ، وإن كان لم يعد الى شموخه القديم .

ولم يتخل المسـجد الجامع ــ جامعة الفسـطاط ــ عن دوره الحضارى والفكرى والأدبى حتى نهايات القرن السـابع الهجرى .. ثم سكت الصوت ، وخفت الضوء ، وحمل الأزهر وحده عبء الثقافة الاسـلامية فى مصر العربية ، وهكـذا انتهى دور جامعة الفسـطاط الاسـلامية .

ابن ادريس : سـيرة وتاريخ

— ١ —

وتسـلم الراية فى جامعة الفسطاط الاسلامية الامام الشـافعى (١٥٠ — ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ — ٨٢٠ م) •

والامام الشـافعى هو من هو ، امامة فى الدين والفقه والأصول والحديث واللغة والأدب والشعر والنقد •

والشـافعى هو محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد •

يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد المطلب ، فهو من هاشم عم رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وعن ولادته فقد روى رحمه الله عن نفسه ، قال

ولدت بغزة سنة خمسين ومائة — يوم وفاة أبى حنيفة فقال الناس : مات امام وولد امام — وحملت الى مكة وأنا ابن سنتين • وقال : كانت أمى من الأزد •

وحدث الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبـد الله بن الزبير : أنه خرج الى اليمن فلقى محمد بن ادريس الشافعى وهو مستحفز فى طلب الشـعر والنحو والغريب ، قال فقلت له الى كم هـذا ؟ ! لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك ، وانصرفت به معى الى المدينة فذهبت به الى مالك بن أنس وأوصيته به ، قال فما ترك عنـد مالك

ابن أنس الا الأقل ولا عنـد شيخ من مشـايخ المدينة الا جمعـه ، ثم شخص الى العراق فانقطع الى محمد بن الحسن فحمل عنه ثم جاء الى المدينة بعد سنتين ، قال فخرجت به الى مكة فكلمت له ابن داود وعرفته حاله الذى صار اليه ، فأمر له بعشرة آلاف درهم .

ويروى عن الشافعى أنه قال : كنت أنا فى الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبى الآية فأحفظها أنا ، ولقد كنت — قبل أن يفرغ المعلم من الاملاء — قد حفظت جميع ما أملى ، فقال لى ذات يوم : ما يحل لى أن آخـذ منك شـيئاً ، قال : ثم لما خرجت من الكتـاب كنت أتلقط الخزف[1] والدفوف[2] وكرب النخل[3] وأكتاف الجمال[4] أكتب فيها الحديث وأجيء الى الدواوين فأستوهب منها الظهور[5] فأكتب فيهـا حتى كانت لأمى حباب[6] فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثا ، ثم انى خرجت عن مكـة فلزمت هذيلا فى البادية اتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب .

قال : فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم فلما رجعت الى مكـة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار ، وأيام العـرب ، فمر بى رجـل من الزبيريين من بنى عمى فقال لى : يا أبا عبـد الله : عز على ألا يكون مع هـذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون قد سدت أهل زمانك ، فقلت : فمن بقى نقصـد ؟ فقال لى : مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ ، قال : فوقع فى قلبى فعمدت الى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته فى تسع ليال ظاهراً قال : ثم

---

(١) الخزف : كل ما عمل من طين وشوى حتى يكون فخاراً .
(٢) الدفوف : الجلود التى يعمل منها الطبل .
(٣) كرب النخل : أغصان النخل العريضة الغليظة .
(٤) أكتاف الجمال : جمع كتف : عظم عريض خلف المنكب .
(٥) أى الأوراق .
(٦) حباب : جمع حبب . وعاء يوضع فيه الماء مثل الجرة .

دخلت الى والى مكة وأخذت كتابه الى والى المدينة ، والى مالك بن أنس قال : فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب الى الوالى ، فلما أن قرأه قال يا فتى ان مشيى من جوف المدينة الى جوف مكة حافياً راجلا أهون على من المشى الى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه ، فقلت : ـ أصلح الله الأمير ـ ان رأى الأمير أن يوجه اليه ليحضر ، قال : هيهات ، ليت أنى اذا ركبت أنا ومن معى وأصابنا من تراب العقيق[1] نلنا بعض حاجتنا . قال : فواعدته العصر وركبنا جميعاً ، فوالله لكان كما قال : لقد أصابنا من تراب العقيق . قال : فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت الينا جارية سوداء فقال لها الأمير : قولى لمولاك : انى بالباب . قال : فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت : ان مولاى يقرئك السلام ويقول ان كانت لك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب ، وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولى له ان معى كتابا من والى مكة اليه فى حاجة مهمة . قال : فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعته ، ثم اذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار . وهو شيخ طويل مسنون اللحية[2] ، فجلس وهو متطلس[3] فرفع اليه الوالى الكتاب ، فبلغ الى هذا « ان هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع » ، فرمى بالكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ! أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالرسائل ؟ قال : فرأيت الوالى تهيبه أن يكلمه فتقدمت اليه وقلت : ـ انى رجل مطلبى ومن حالى وقصتى ، فلما أن سمع كلامى نظر الى ساعة وكانت لمالك فراسة فقال لى : ما اسمك ؟ قلت محمد ، فقال لى يا محمد : اتق الله واجتنب المعاصى ، فانه سيكون لك شأن من الشأن ثم قال : نعم وكرامة ، اذا كان غداً تجيء ويجيء من يقرأ لك . قال : فقلت أنا أقوم بالقراءة .

---

(١) الوادى وكل مكان شقه السيل ، واسم واد فى ظاهر المدينة .
(٢) مسنون اللحية : اى طويلها .
(٣) اى لابس الطيلسان : وهو كساء مدور أخضر .

قال : فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهراً والكتاب في يدي فكلما تهيبت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وأعرابي فيقول : يا فتى زد حتى قرأته[1] في أيام يسيرة ، ثم أقمت بالمدينة حتى توفى مالك بن أنس ، ثم خرجت الى اليمن فارتفع لي بها الشأن وكان بها وال من قبل الرشيد ، وكان ظلوماً غشوما وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه من الظلم . قال : وكان باليمن تسعة من العلوية قد تحركوا ـ فكتب الوالي ـ انى أخاف أن يخرجوا وان ههنا رجلا من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي . قال : فكتب اليه هارون الرشيد : أن احمل هؤلاء واحمل الشافعي معهم . فقرنت معهم . قال : فلما قدمنا على هارون الرشيد أدخلنا عليه وعنده محمد بن الحسن . قال : فدعا هارون الرشيد بالنطع[2] والسيف ، وضرب رقاب العلوية ، ثم التفت محمد بن الحسن فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا المطلبي لا يغلبنك بفصاحته فانه رجل لسن ، فقلت مهلا يا أمير المؤمنين ، فانك الداعي وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما تريد مني ولست القادر على ما أريد منك .

يا أمير المؤمنين ، ما تقول في رجلين : أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده أيهما أحب الى ؟ قال : الذي يراك أخاه . قال : قلت فذاك أنت يا أمير المؤمنين . قال فقال لي : كيف ذاك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : انكم ولد العباس تروننا اخوتكم وهم يروننا عبيدهم . قال : فسرى ما كان به فاستوى جالساً فقال : يا ابن ادريس : كيف علمك بالقرآن ؟ قلت : عن أية معلومة تسألني ؟ عن حفظه قد حفظته ووعيته بين جنبي وعرفت وقفه وابتداءه ، وناسخه ومنسوخه وليليه ونهاره ووحشيه وأنسيه وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص

---

(1) اى الموطأ .

(2) بساط من الجلد .

يراد به العام . فقال لى : والله يا ابن ادريس لقد ادعيت علماً فكيف علمك بالنجوم ؟ فقلت : انى لأعرف منها البرى من البحرى والسهلى والجبلى والمصبح وما تجب معرفته . قال : فكيف علمك بأنساب بأنساب العرب ؟ قال : فقلت انى لأعرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبى نسب أمير المؤمنين . قال : لقد ادعيت علماً فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين ؟ قال : فذكرت موعظة لطاووس اليمنى فوعظته بها ، فبكى وأمر لى بخمسين ألفاً وحملت على فرسى وركبت من بين يديه وخرجت فما أن وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفا على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه . قال : فلحقنى هرثمة وكان صاحب هارون الرشيد فقال : اقبل هذه منى . قال فقلت له : انى لا آخذ العطيه ممن هو دونى وانما آخذها ممن هو فوقى . قال : فوجد فى نفسه . قال : وخرجت كما أنا حتى جئت منزلى فوجهت الى كاتب محمد بن الحسن بمائة دينار وقلت : اجمع الوراقين الليلة على كتب محمد بن الحسن وانسخها لى ووجه بها الى . قال : فكتب لى ووجه بها الى .

— ٢ —

وقد قضى الشافعى السنوات الأخيرة من حياته فى مصر . ففى يوم الخميس أول ربيع الثانى عام ١٩٩ هـ ـ التاسع عشر من نوفمبر عام ٨١٤ م ، وفد على مصر الفسطاط من مكة المكرمة عالم قريش وامامها ، محمد بن ادريس الشافعى ، ومعه ابنه أبو عثمان محمد (ــ ٢٣٢ هـ) ، ومعه كذلك زوجه حميدة حفيدة الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، ثم بنتاه زينب وفاطمة ، وذلك للاقامة الدائمة فيها ، وكان فى ركبه تلميذه أبو بكر الحميدى (ــ ٢١٩ هـ) .

وكانت شهرة محمد بن ادريس العلمية ملء الأسماع والبقاع ، فالعالم الاسلامى كله يذكره بالخير والتقدير والاكبار ...

وصادف دخوله الفسطاط دخول نائب والى مصر الجديد ، الأمير

العباسى ، عبـد الله بن عبـاس بن موسى . وكان الخليفة المـأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) قد ولى العباس بن موسى على مصر ، فبعث ابنه عبـد الله الى الفسطاط نائباً عنه فى حكم البلاد . فدخلها فى اليوم الذى دخل فيه الشافعى مدينة مصر وعاصمتها ، وقبلة الاسـلام فيها ، الفسـطاط .

ونزل ابن ادريس فيها على أخواله من الأزد ، ثم كان فى ضيافة عبـد الله بن عبد الحكم القرشى (١٥٥ — ٢١٤ هـ) ، وهو صديقه وزميله فى طلب العلم فى حلقة الامام مالك ، رضى الله عنه ، فى المدينة المنـورة ...

وأخذ ابن ادريس يتردد على جامعة ، أو جامع ، الفسـطاط ، للصـلاة ، ولحضور حلقات العلم فيهـا ، وكان أبو رجب الخولانى العلاء بن عاصم يتولى امامة الجامع العتيق ، جامع عمرو ، أو تاج الجوامع ويلقى قصص السيرة والفتوح ، فى احدى حلقاته ، وكان الشافعى يصلى خلفه ، ويقول فيه : ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب[1] .

وها هو ذا ابن ادريس عالم قريش ، « الذى ملأ طباق الأرض علماً » كما وصفه الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ) يجلس فى جامعة الفسـطاط ، فى حلقة علمية خاصـة به ، ومن حوله ابنه أبو عثمان ، وتلميذه الحميدى ، ومحمد (١٨٢ — ٢٦٨ هـ) ابن صديقه القرشى عبد الله بن عبد الحكم ، وكان محمد كأبيه مالكيا ، ولكنه أنس بالشافعى ، ووثق بعلمه ، ورغب فى الافادة منه ، فأخذ يتردد على حلقة صديق أبيه ، وخاف المـالكيون ذلك وأنكروه لمـا فيه من وضوح الانصراف عن المذهب الى مذهب هـذا القادم الجديد ، وشـكوا الى أبيه ، فأخـذ يخفف من حدتهم ، ويهدىء من ثورتهم ويقول لهم : ان

---

(١) ١٣٥ و ٢/١٣٦ حسن المحاضرة للسيوطى .

ابنى محمداً شـاب صغير ، يجب أن يستمع الى الآراء وأن يناقشها .

ثم كان اذا انفرد بابنه يقول له : يا بنى ، الزم ابن ادريس . وكان عبد الله اماما جليلا ، تصدر زعامة المذهب المـالكى وتدريسه فى جامعة الفسطاط ، وألف كتباً فيه ، وأبناؤه الثلاثة عبد الحكم (ـ ٢٣٧ هـ) ومحمد (ـ ٢٦٨ هـ) ، وعبد الرحمن المؤرخ ، كانوا نجوم الفسطاط ، ملأوا آفاقه علماً وفضـلا ، وقد جلسوا فى حلقه ابن ادريس ، وأفادوا من علمه ، وكان عبد الرحمن من أحرصـهم على التردد عليها ، وكانت أسرة عبد الحكم فى الفسطاط أسرة جاه ومجد وعلم ، يأوى اليها العلماء والآدباء والشـعراء . ويسـتظلون بظلها ، ويلقون الكثير من برهم وكرمهم .

وتعهدت ابن ادريس بالبر والرعاية كذلك السيدة نفيسـة بنت الحسن الأنور ، حفيـدة زيد بن الحسن بن على (١٤٥ ـ ٢٠٨ هـ) وكانت قد هاجرت الى الفسطاط عام ١٩٣ هـ ، وأقامت فيه ، فراراً من اضطهاد العباسيين للبيت العلوى ، وظلت فى مصر هى وزوجها اسحاق ابن الامام جعفر الصـادق رضى الله عنهم ، وعاشت فى الفسـطاط خمسـة عشر عاما الى أن وافاها الأجل عام ٢٠٨ هـ . وكانت حفاوتها بابن ادريس لا تعادلها حفاوة .

ورأى النـاس عالمـا من قريش ، يجلس فى جامعتهم للتعليم ، يصلى فلا يرون أحسن صلاة من صلاته ، ويتحدث فلا يسمعون أعذب حديثاً من حديثه ، مع صباحة وجهه ، وواسع كرمه ، وعلو كعبـه ، فافتتنوا به ، وواظبوا على الجلوس فى حلقته .

وخف الى مجلس ابن ادريس العلمى فى جامعـة أو جامـع الفسطاط : البويطى (ـ ٢٣١ هـ) والربيع الجيزى (ـ ٢٥٦ هـ) ، والمزنى (ـ ٢٦٤ هـ) ، والربيع بن سليمان المرادى (ـ ٢٧٠ هـ) ، ويونس بن عبد الأعلى (١٧٠ ـ ٢٦٨ هـ) وغيرهم .

واتسعت حلقته اتساعاً كبيراً ، حيث أخذ الشافعي يلقى محاضراته فى الفقه وأصوله وفى التفسير والحديث ، وفى اللغة والأدب ، على الطلاب ، ويملى عليهم رسائله وكتبه •

ومع أن حلقات العلم فى جامعة الفسطاط كانت : كثيرة وكبيرة ، الا أن حلقة ابن ادريس كثر طلابها ومريدوها كثرة مذهلة ، وصارت بكثرة المترددين عليها أكثر الحلقات ، وأعظمها أثراً فى خدمة الدين واللغة والأدب •

وكان ابن هرم يكتب للأستاذ الجليل ابن ادريس ، والبويطى يقرأ له الدرس ، والطلاب يسمعون ثم يكتبون ، وفى زاوية الخشابية بالمسجد الكبير — الجامعة الاسلامية الأولى فى مصر — التى عرفت بابن ادريس كان نسكه وعبادته ، وكان يجلس فيها ليكتب ، ومن حوله تلاميذه ومريدوه •

وكان يبدأ دروسه بالقرآن وتفسيره ، ثم بالحديث وعلومه ، ثم بالفقه وأصوله ، ثم بالعربية وعلومها •

وكان يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن نظر فى اللغة رق طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه • وكان يناظر سرج الغول الشاعر الأديب فى الأدب والشعر والنقد ، وكان لسرج حلقة أدبية كبيرة فى الجامع العتيق •

وكان لابد أن يغضب المالكيون خوفاً على مكانتهم الروحية التى زعزع منها ابن ادريس ، اذ لم يصبحوا فى الصدارة كما كانوا من قبل ، حتى ان « فتيان بن أبى السمح » المالكى الفقيه ناظر الشافعى ، وأسرف فى اللدد والخصومة فى مناظرته ، ووجه الى ابن ادريس كلاماً لا يصح أن يقال له ، فعلم أمير مصر بالأمر ، فعاقب ابن أبى السمح

عقاباً شديداً زاجراً . وأخذ تلاميذ « فتيان بن أبى السمح » يطاردون كل من يذهب الى حلقة الشافعى ، غضباً لأستاذهم ، وجـاء عيسى بن المنكدر قاضى مصر فيما بعد على مدى عامين (٢١٢ ــ ٢١٣ هـ) الى الأستاذ العظيم ابن ادريس يلقى عليه اللوم لأنه أحدث مذهباً جديداً . ولكن الجماهير كانت بالمرصـاد لكل من حاول أن يمس مكانة الأستاذ الجليـل ، كمـا كان والى مصر « السرى » (المتـوفى عام ٢٠٥ هـ) بالمرصـاد لابن أبى السمح حيث عاقبه عقاباً رادعاً .

وكان الامام ابن ادريس يذكر وهـو فى الفسـطاط وطنـه مكة المطهرة فى شـوق كبير اليهـا ، ويذكر امـام بغـداد أحمـد ابن حنبـل (١٦٤ ــ ٢٤١ هـ) بالشـوق والحب ويقول : « لقـد وعـدنى أحمـد أن يقـدم الى مصر » ويقـول لتلميـذه يونس بن عبـد الأعلى (٢٧٠ هـ) يا يونس أدخلت بغـداد ؟ فرد عليـه يونس : لا قال : ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس .

وكان ابن ادريس يقول عن ابن عبد الأعلى هذا : ما رأيت أحدا أعقل من يونس بن عبد الأعلى . وكان أحمـد بن حنبل يقـول فى الشافعى : « كان الشافعى كالشمس للدنيا . وكالعافيـة للناس » ، ويقول عنه : ما علمت أحـداً أعظم منة على الاسـلام فى زمن الشافعى من الشـافعى . ويقول ما رأيت أحـداً أفقه فى كتاب الله تعالى من هـذا القرشى .

— ٣ —

وكان ابن ادريس قد ولد فى غزة عام ١٥٠ هـ ، وبين غزّة وعسقلان عاش مع أمه يتيما عامين . ثم ذهبت به الأم الى بلده مكة البلد الحرام ، فلما جاوز الرابعة من عمره أقبل على القرآن الكريم يحفظه ، وما أتم السابعة الا وقد تم حفظه وتجويده .

ويقص عن نفسه قصة حياته الأولى فيقول :

خرجت الى البادية ، فلزمت هذيلا ، أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم ، وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة ، جعلت أنشد الأشعار ، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب ، فمر بي رجل من الزبيريين ، فقال : لقد عز على أن لا يكون مع هذه اللغة ، وهذه الفصاحة والذكاء ، فقه ، فلو حصلت الفقه .. فتكون قد ست أهل زمانك .

فقال الشافعي : ومن بقى تقصد ؟ فقال : هذا مالك سيد المسلمين في المدينة . فوقع كلامه في قلبي ، فاستعرت « الموطأ » وحفظته في تسع ليال ، وعزمت على الرحلة الى مالك » .

ويقول محمد ابن بنت الشافعي : أقام الشافعي على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة ، وقال : ما أردت منه ألا الاستعانة على الفقه .

أصبح لابن ادريس شأن في حلقات المسجد الحرام ، لما عرف به من حدة الذكاء . وجودة الطبع ، وجمال البيان ، وفصاحة اللهجة ، وحسبك به حفظه لكتاب الله وهو في السابعة وللموطأ وهو في العاشرة ، وتصدره لحلقة العلم في المسجد الحرام وهو في الخامسة عشرة من عمره ، ثم الاذن له بالافتاء وهو في العشرين ..

وكان يحفظ من شعر الهذليين وحدهم عشرة آلاف بيت ، عدما حفظه من شعر العرب وخطبهم وبلاغاتهم .

أخذ في المسجد الحرام العلم والفقه عن أئمة الفقه والتفسير والحديث واللغة ، وجلس في حلقة مسلم بن خالد الزنجي ، مفتى مكة وفقيهها (١٨٠ هـ) . وسفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) شيخ المحدثين ،

ثم غادر مكة الى مدينة رسـول الله ، ليأخذ الحديث على مالك ، وكان سفيان يقول فيه : هذا أفضـل فتيان أهل زمانه . ولزم مالكا

شيخ المحدثين (٩٤ — ١٧٩ هـ) ، وفى حلقته تعرف بالكثير من أترابه الشداة الناهجين نهجه فى التعلم والتعليم .

ولم يلبث أن ولى قضـاء اليمن ، بمساعدة مصعب بن عبد الله القرشى وتوصيته عليه عند والى اليمن ، وفى اليمن لقى جماعة من العلماء والمحدثين أخـذ عنهم ، وأفاد منهم كمطرف بن مازن الصنعانى ، وعمرو ابن أبى مسلمة صـاحب الأوزاعى ، ويحيى بن حسـان صاحب الليث ابن سـعد امام مصر . وهشـام بن يوسف قاضى صنعاء ، وغيرهم . واتهمه حساده والحاقدون عليـه بالعلوية ، ورفع أمره الى الرشـيد فاستدعاه وسـاءله ، وكان ذلك عام ١٨٤ هـ فنفى الشافعى ذلك عن نفسه ، وشهد له محمد بن الحسن (١٣٢ — ١٨٩ هـ) لدى الرشيد ، وكان محمد زميلا للشـافعى فى حلقة الامام مالك ، فى المسجد النبوى فى المدينة المنورة ، فعفا الرشـيد عنه ، وأخـذ يتردد على حلقـات العلم فى بغداد ولم يلبث أن عاد الى مكة ، حيث عاود تصـدر حلقتـه فى المسجد الحرام .

وزار الامام أحمـد بن حنبل مكة عامى ١٨٧ ، ١٩١ هـ وجلس الى الشـافعى ، وملأ قلبه وعقله جميعاً . وكان أحمد يقول فيه لبعض أصحابه : تعال حتى أريك اليوم رجلا لم تر عيناك مثله ، ان فاتك عقله فانى أخاف ألا تجده الى يوم القيامة . ويقول : ما رأيت أحداً أفقه فى كتـاب الله تعالى من هـذا القرشى ، وجاء الأصمعى (٢١٦ هـ) الى مكة ، ولقى الشـافعى ، وأخذ عنه أشـعار هذيل كما أخذ عنه شعر الشنفرى ، مع جلالة قدر تحصيله للغة والأدب والشعر ، ولكن ليس ذلك بغريب على الشـافعى ، وقد كان الجاحظ (٢٥٥ هـ) يقول فيه : كأن لسـانه ينفث الدر .

وبعد أحد عشر عاماً من رحلته الأولى الى بغداد ، عاد عام ١٩٥ هـ اليها ثانية فى خلافة الأمين ، فقضى فى العراق عامين ، جلس فيهما الى علماء بغداد ، وجلسوا اليــه : الحسن بن زياد اللؤلؤى (٢٠٤) • والكرابيسى (٢٤٥) ، وأبو ثور (ــ ٢٤٠هـ) ، والزعفرانى (ــ ٢٦٠هـ) •

وقرأ كتب أبى حنيفة (١٥٠ هـ) ، وأصــحابه : أبى يوســف (١١٣ ــ ١٨٣) ومحمد بن الحسن (١٢٢ ــ ١٨٩ هـ) : وأملى مذهبه القديم فى بغــداد •

وعاد الى مكة عام ١٩٧ هـ ، ولم يلبث أن تركها الى بغــداد ، فدخلها للمرة الثالثة عام ١٩٨ هـ ، ليقيم فيها عدة أشــهر ، يرحل بعدها الى مصر الفسطاط ، والى جامعة الفسطاط ، فى رحلته الخالدة ، التى جاءت فى نهايات حياته •

وفى مصر الفسطاط كانت قد نشــأت مدارس فقهية كثيرة ، ففيها نبغ عبد الله بن وهب (١٢٤ ــ ٢٢٠ هـ) أحــد الأئمة المجتهــدين ، والليث بن سعد (٩٤ ــ ١٧٥ هـ) فقيه مصر وامامها ومحدثها ، ومن تلامذة الليث : اسحاق بن الفرات (٢٠٤ هـ) واسحاق بن بكر (٨ ٢ هـ) •

وحل الشافعى بالفسطاط ، فقاد حركة فقهية جــديدة ، كان لهــا صداها العميق فى العالم الاسلامى •

كان أهل مصر يعتمدون على فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٨ هـ) من الصــحابة ، ويزيــد بن حبيب (ــ ١٢٨ هـ) مــن التابعين ، وأهل مكة يتبعون فتاوى عبد الله بن مسعود (ــ ٣٦ هـ) وتلاميذه من التابعين ، وأهــل البصرة يعتمدون على فتاوى أبى موسى الأشعرى وأنس بن مالك من الصحابة ، والحسن البصرى ، وابن سيرين (١١٠ هـ) من التابعين • وأهل الشــام يتبعون فتاوى معاذ بن جبل

(ــ ٢٨ هـ) ، وعبادة بن الصامت (ــ ٣٤ هـ) من الصحابة ، وعمر ابن عبد العزيز (١٠١ هـ) وأضرابه من التابعين •

فى عام ١٩٥ هـ كانت رحلة الشافعى الى بغداد ، وهى رحلته الثانية ، فى خلافة الأمين ، وصارت له حلقة علمية فى دار السلام ، تتلمذ عليه فيها الكثيرون ممن أخذوا عنه ، وطرحوا مذهبهم الى مذهب بقية أصحاب الرأى • وألف الشافعى فى هذه الرحلة التى دامت عامين كتابه المشهور « الحجة » • الذى رواه عنه أربعة من البغداديين : الكرابيسى ، والزعفرانى ، وأبو ثور ، والامام أحمد بن حنبل •

ولما وفد على مصر أملى فيها ، فى جامع الفسطاط ، على تلاميذه، كتبه الجديدة ، التى يجمعها كتابه الخالد « الأم » الذى حمل مذهبه الجديد ، وهو المذهب الذى وصل اليه باجتهاده فى مصر •

ولما توفى الشافعى رثاه محمد بن دريد فقال :

ألم تر آثار ابن ادريس بعده دلائلها فى المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهى خوالد وتنخفض الأعلام وهى فوارع[1]

وكان للامام الشافعى منزلة كبيرة فى الشعر وروايته • بدأت صلته به منذ شبابه وما زال يجول فيه ــ حتى بعد أن انصرف الى فقهه ــ وصار فى مكنته أن يرتجل فى المعنى الذى يريده بيتاً أو بيتين أو أبياتا •

وقد جمع الشافعى فى أول دراساته شعر الهذليين واختص به ، وشعرهم كان جاهلياً اسلامياً فصيحا تناولوا فيه الحماسة والفضائل

---

(١) القصيدة اوردها الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ، وصاحب وفيات الأعيان (ابن خلكان) ج ٣ ــ ص ٣٠٩ •

والحكمة ، ولعل الشافعى أعجب بشعر هؤلاء لنشأته فى قبائلهم ورضاه عن طباعهم ؛ ولأن هذيلا — كما يقول الشافعى نفسه — : كانت أفصح العرب .

وروى الشافعى شعر الشنفرى ، وكان كثيراً ما يتمثل بأشعار الطفيل الغنوى كما أورد ابن أبى حاتم فى كتابه « آداب الشافعى ومناقبه » .

واتصل الأصمعى بالشافعى يأخذ عنه شعر الشنفرى وشعر هذيل ويتعلم منه روايته وشرحه وفصيحه وغريبه ، روى أبو عثمان المازنى قال : سمعت الأصمعى يقول : قرأت شعر الشنفرى على الشافعى بمكة .

وحكى الحسين بن أحمد البيهقى الفقيه ببغداد قال : سمعت حسان بن محمد يحكى عن الأصمعى أنه قال : صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن ادريس الشافعى ، قال : وحكى لنا عن مصعب الزبيرى قال : كان أبى والشافعى يتناشدان فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا .

ويقول الدكتور عبد الجبار الجومرد فى كتابه « الأصمعى » عن المزهر للسيوطى : أنه درس ديوان الشاعر الجاهلى الشنفرى وشعر بنى هذيل فى مكة على الامام محمد بن ادريس صاحب المذهب الشافعى . ثم قال : والظاهر أنه درس ذلك فى أواخر أيامه وهو مسن ، فى حين كان أستاذه الشافعى أصغر منه سناً .

وحدث الصولى عن المبرد أنه قال : كان الشافعى من أشعر الناس وآدب الناس . وقال ابن رشيق : أما محمد بن ادريس الشافعى فكان من أحسن الناس افتناناً فى الشعر .

والشافعى فى لغته كلها معجب فاتن ، قال ابن هشام ، جالست

الشافعى زمانا فما سمعته تكلم بكلمة الا اعتبرها المعتبر : لا يجد كلمة فى العربية أحسن منها . وقال ابن هشام : الشافعى كلامه لغة يحتج بها ، وقال : كانت لغته فتنة . وحدث عنه قال : كان قوم من أهل العربية يختلفون الى مجلس الشافعى معنا ويجلسون ناحية قال : فقلت لرجل من رؤسائهم : انكم لا تتعاطون العلم (أى الفقه) فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعى !

ومع علو لغة الشافعى فى كل أقواله فان شعره سهل ممتنع ، ولعلك اذا قست قطعة من نثره بقطعة من شعره بدا لك الفرق بين اللغتين ، فانه فى النثر يختار أجزل الألفاظ ، ويميل الى الغريب الصعب.

أما ألفاظه فى الشعر فلن تعثر فيها على غريب ولا صعب ، بل كان جل شعره سهلا واضحا . وكان شعره كله مقطعات ، فلم ينظم قصائد طوالا ، ولذا سهل الاقتباس منه والاستدلال به . ويبدو أن ميله الى المقطعات كان صادراً عن طبعه الذى اختار الايجاز فى كل ما يكتب حتى قال فيه يونس بن حبيب : كان لسانه أكبر من كتبه .

ولما كان الشافعى قد قصد فى شعره الى السهولة والوضوح وسلك فى أكثره سبيل الارتجال فانه لم يقل فى كل القوافى ، بل غادر القوافى الصعبة فلم يسلكها ، واكتفى بالقول فى الحروف الجيدة التى لا تقف أمام العذوبة والرقة والسرعة والارتجال[1] .

---

(1) راجع ديوان الشافعى تحقيق خفاجى ــ نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

البــاب الثانى

من أعلام جامعة الفســطاط وعلمائها

علماؤها ــ واعلامها

لقد كان جامع عمرو مركز الحياة العلميه والاســلامية فى مصر ، وملتقى العلماء والفقهاء والأئمة ، وموطن الفتيا ، واليه يفد الطلاب من كل مكان ، لتلقى العلوم ، ومنه يتخرج صفوة العلماء والفقهاء والقضاة والمفتين والدعاة[1] .

وكان لمصر السبق فى التصوف وفى كثير من العلوم الاسلامية .

ذو النــون المصرى

من أئمة التصــوف فيها ذو النــون المصرى[2] المتــوفى عام ٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م وميــلاده هو عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م وأســتاذه هو سعدون الصوفى المصرى .

علوم القراءات والتفسير

كان للمصريين اهتمام كبير بعلم القراءات وصــاروا أساتذة القراء فى المغرب والأندلس ، ومنهم نافع (المتوفى عام ١٢٠ هـ) ، وورش .

الامام الحوفى وتفسيره الكبير

من علماء الفســطاط ، وهو امام فى التفسير ، وتفســيره الكبير الذى قيــل انه يقع فى مائة مجلد مخطوط ومنــه بعض أجزاء فى دار الكتب المصرية ، وقد اشتركت فى مناقشــة رسالة دكتــوراه عن الامام الحوفى وتفسيره فى كلية الآداب بجامعة عين شمس منذ ما يقارب العشرين عاما .

وقد توفى الحوفى فى أوائل القرن الخامس الهجرى (٤٠٣ هـ) .

---

(١) راجع مصر فى فجر الاسلام ــ د. سيدة كاشف ص ٣١٤ ــ ٣٣٦

(٢) راجــع ما كتبته عنــه فى كتــابى « التراث الروحى فى مصر الاســلامية » .

من أقدم علماء الفسطاط فى الحديث عبد الله بن وهب المصرى ، وله كتاب « الجامع فى الحديث » .

وكذلك أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة (٩٧ — ١٧٤ هـ) [١] .

والليث بن سـعد بن عبـد الرحمن الأصـبهانى الأصل المصرى المولد[٢] (٩٤ — ١٧٥ هـ) . وكان ثقة ، كثير الحديث ، صحيحه ، واشـتغل بالفتوى فى زمانه .

وله مذهب فى الفقه الا أنه لم ينتشر بين الناس .

الامام الطحاوى فى جامعة الفسطاط

شيخ المحدثين ، وامام الفقهاء ، وعالم العلماء فى عصره .

قال ابن زولاق حدثنى عبد الله بن عثمان قال : سمعت أبا جعفر الطحاوى يقول : كانت لأبى الجيش بن احمد بن طولون أمير مصر شـهادة فحضر الشهود ، وكان كلما كتب شـاهد شهادته قرأها الأمير والقاضى ، وكان كل شـاهد يكتب : أشـهدنى الأمير أبو الجيـش ابن أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، قال أبو جعفر : فلما شهدت أنا كتبت : أشـهد على اقرار الأمير أبى الجيش بن أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، وأدام عزه وعلوه ، بجميع ما فى هذا الكتاب ، فلما قرأه الأمير قال للقاضى : من هذا ؟ قال هذا كاتبى فقال : أبو من ؟ قال : أبو جعفر ، فقال : وأنت يا أبا جعفر فأطال الله بقاءك وأدام عزك ، قال : فقمت بسبب ذلك محسوداً من الجماعة .

---

(١) ٣١٣/١ وفيات الاعيان لابن خلكان .
(٢) ٣١٧ مصر فى فجر الاسلام د. سيدة اسماعيل كاشف .

قال ابن زولاق فلم يزل محمد بن عبدة وأصحابه (يسعون) به ، فأغروا به نائب هارون ابن أبي الجيش فاعتقل أبا جعفر الطحاوى بسبب اعتبار الأوقاف . قال ابن زولاق : وسمعت أبا الحسن على بن أبي جعفر الطحاوى يقول : سمعت أبي يقول وذكر فضـل أبي عبيدة بن حربوية وفقه فقال : كان يذاكرني بالمسـائل ، فأجبته يوما فى مسألة فقال لى : ما هـذا قول أبي حنيفة ، فقلت له : أيها القاضى أو كل ما قاله أبو حنيفة أقول به ؟ فقال : ما ظننتك الا مقلدا فقلت له وهل يقلد الا عصبى ؟ فقال لى أو غبى . قال : فطارت هـذه الكلمة بمصر حتى صـارت مثلا وحفظها الناس . قال : وكان الشـهود ينفسون على أبي جعفر بالشهادة لئلا يجتمع له رياسـة العلم وقبول الشـهادة فلم يزل أبو عبيـد فى سـنة ٣٠٦ هـ حتى عدله بشـهادة أبي القاسم مأمون ومحمد بن موسى ، فقبله وقدمه وكان أكثر الشهود فى تلك السنة قد حجوا وجاوروا بمكة فتم لأبي عبيد ما أراد من تعديله ، وكان لأبي عبيـد فى كل عشـية مجلس لواحد من الفضلاء يذاكره وقد قسـم أيام الأسـبوع عليهم ، منها عشـية لأبي جعفر ، فقال له فى بعض كلامه ما بلغه عن أمناء القاضى وحضه على محاسبتهم فقال القاضى أبو عبيد : كان اسماعيل بن اسحاق لا يحاسبهم فقال أبو جعفر : قد كان القاضى بكار يحاسبهم ، وقال (أبو جعفر) قد حاسب رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمناءه وذكر له قصة ابن الأتبية[1] فلما بلغ ذلك الأمناء لم يزالوا حتى أوقعوا بين أبي عبيد وأبي جعفر وتغير كل منهما للآخر ، وكان ذلك قرب صرف أبي عبيد عن القضـاء قال : فلما صرف أبو عبيد عن القضاء أرسـل الذى ولى بعـده الى أبي جعفر بكتاب عزله قال فحـدثنى على بن

(1) بالهمزة رواية والمشهور باللام بضم فسـكون وقيل بفتحتين . وبنو اتب من الأزد وحديث ابن اللتبية عبد الله فى استعماله على صدقات بنى سـليم وبنى ذبيـان فى صحيح البخارى فى الجمعة والزكاة والحيل والأحكـام .

أبى جعفر : قال فجئت الى أبى فهنأته فقال لى أبى : ويحك أهذه تهنئة أم هذه والله تعزية ، من أذاكر بعده و من أجالس ؟ .

قال ابن زولاق : ولما تولى عبد الرحمن بن اسحاق الجوهرى القضاء بمصر كان يركب بعد أبى جعفر وينزل بعده فقيل له فى ذلك ، فقال هذا واجب لأنه عالمنا وقدوتنا وهو أسن منى باحدى عشرة سنة ، ولو كانت احدى عشرة ساعة لكان القضاء أقل من أن أفتخر به على أبى جعفر .

ولما ولى أبا محمد عبد الله بن زبر قضاء مصر وحضر عنده أبو جعفر الطحاوى فشهد عنده ، أكرمه غاية الاكرام ، وسأله عن حديث أنه كتبه عن رجل من ثلاثين سنة فأملاه عليه . وقال وحدثنى الحسين بن عبد الله القرشى قال : وكان أبو عثمان أحمد بن ابراهيم بن جماد فى ولايته القضاء بمصر يلازم أبا جعفر الطحاوى يسمع عليه الحديث فدخل رجل من أهل أسوان فسأل أبا جعفر عن مسألة ، فقال أبو جعفر : من مذهب القاضى أيده الله كذا وكذا ، فقال : ما جئت الى القاضى انما جئت اليك ، فقال له : يا هذا ، من مذهب القاضى ما قلت لك . فأعاد القول . فقال أبو عثمان : تفتيه أعزك الله فقال : اذا أذنت أيدك الله أفتيته فقال : قد أذنت ، فأفتاه ، قال : فكان ذلك يعد فى فضل أبى جعفر وأدبه ..

وكان يأمر باستعراض جميع ما ورد فى كل موضوع فقهى من خبر مرفوع أو موقوف وأمر مرسل أو أثر من السلف أو رأى منهم بأسانيد مختلفة المراتب ليستخلص من بينها الحق الصراح ، لأن من قصر فى جمع الروايات واكتفى بخبر يعده صحيحا لا يكون قد وفى العلم حقه لأن الروايات تختلف زيادة ونقصا ومحافظة على الأصل ورواية بالمعنى واختصارا فلا تحصل طمأنينة فى قلب الباحث الا باستعراض

جميعها مع آراء فقهاء الصحابة والتابعين ومن بعدهم فيتمكن بذلك من رد المردود وتأييد المقبـــول .

وهذا ما فعله الطحاوى فى كتبه وقد أهله علمه الواســـع لحمــل هذه الأعباء المضنية بمقدرة فائقة أثارت نفوس بعض المخالفين فتقولوا عليه فازداد رفعة عند الله وعند الناس ، ولولا هـــذه الهمة القعساء عنده لكان فى امكانه أن يكتفى بكتاب من كتب الصحاح أو السنن فيعكف عليه وحده ظانا أنه هو العلم كله . لكن مواهبه أبت الا هذا الاعتلاء . وذلك فضــل الله يؤتيه من يشــاء ، وزيادة على هذا فقد كان له منهج حكيم فى ترجيح الروايات بعضها على بعض من غير اكتفاء بنقد رجال الأســـانيد فقط . وهو دراســـة الأحكام المنصوصـــة وتبيين الأسس الجامعة لشتى الفروع من ذلك ، فاذا شذ الحكم المفهوم من رواية راو عن نظائره فى الشرع يعـــد ذلك علة قادحـــة فى قبـــول الخبر ، لأن الأصـــل الجامع لشتى الفروع والنظائر فى حكم المتواتر وانفراد راو بحكم مخالف لذلك لا يرفعه الى درجـــة الاعتداد به ، مع هذه المخالفة الصـــارخة . وهو أجاد تطبيق هذه القاعدة الحكيمة فى كتبه جـــد الاجادة ، وليس هذا ترجيحا لخبر على خبر بموافقة القياس ، ولم يكتف بمجرد نقد الرجال علما منه بمبلغ اختلاف النقاد حتى فى أشهر مشهورى حملة الآثار ، ولذا وجد النظار من المتكلمين من غير أهل السنة كثيرا ما يتخذونه وسيلة الى اعلال رواياتهم فى كتب أمثال الكرابيسى وابن أبى خيثمة وابن معين وابن المديني وغيرهم من أطلقوا لسان النقد فى كثير من العلماء وابن المديني وغيرهم من أطلقوا لسان النقد فى كثير من الأجلة كما يظهر من كتاب أبى القاسم الكعبى وكتاب الصـــاحب بن عبادة فى ذلك ، فالطحاوى لم يكتف بهذا النقد القابل للمعارضـــة . بل ســـلك منهجا تخيره أصـــحابنا وســـار ســـيرهم فيه وهو عدم اهمال ناحيـــة موافقة حكم الخبر لنظائره أو مخالفته لها . وهذه طريقة بديعـــة تركها المتأخرون ، وهى محفوظة بجدتها فى كتب الطحاوى وبروعتها ، وكان

يرعاها فى بحوثه بحيث لو تتبعها المتفقه نمت ملكته وانكشف مواهبه ، وليس ذلك من جهله بأحوال الرجال ، بل كان ما قاله أصحاب الشأن فى رجال الرواية على طرف لسانه .. ومبلغ سعة علمه فى الرجال ، يظهر عند كلامه فى الأحاديث المتعارضة فى كتبه . وكتابه الكبير فى تاريخ الرجال موضع ثناء أهل العلم ، وان لم نطلع عليه ، لكن رأينا كثيراً من النقول عنه فى كتب أهل الشأن مما يدل على سعة علمه فى هذا الباب ، وليس ترجيحه لرواية على أخرى لموافقة احداهما للأصول الجامعة دون الأخرى من قبيل الترجيح بموافقة القياس بل رد لما لا نظير له فى الشرع بالشذوذ ، وهو أخذ بأقوى الحجج ، ولا يهمل الكلام فى الرجال أصلا كما تجد مصداق ذلك فى معانى الآثار ومشكل الآثار وغيرهما من مؤلفاته الخالدة ، ومن زعم خلاف ذلك فقد قصر فى التنقيب ورمى بدائه غيره .

من علماء الحديث

ومن المحدثين ممن تخرجوا من جامعة الفسطاط :

١ ــ الربيع بن سليمان المرادى المؤذن بجامع الفسطاط وقد توفى عام ٢٠٧ هـ .

٢ ــ النسائى المتوفى عام ٣٠٣ هـ .

٣ ــ الامام المنذرى الحافظ الكبير شيخ الاسلام (٥٨١ ــ ٦٥٦ هـ) ، وقد نشرت كتابه الأربعين فى الأحاديث النبوية ، بعنوان « مشكاة اليقين فى أحاديث سيد المرسلين » .

٤ ــ الامام القسطلانى .

وهو من أعلام علماء الحديث فى مصر ، وقد شرح البخارى ، وله فى الحديث العديد من المؤلفات .

وهو شيخ المحدثين فى القرن السابع الهجرى ، وقد توفى عام ٧٠٥ هـ .

الأئمة المجتهدون من علماء جامعة الفسطاط

١ ـ سليم التجيبى ، أخذ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومات بدمياط عام ٧٥ هـ .

٢ ـ عبد الرحمن الخولانى ، كان فى القضاء فى عهد ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر .

٣ ـ مالك بن شراحبيل المتوفى (٨٥ هـ ـ ١٧٤ هـ) .

٤ ـ نافع مولى ابن عمر مات عام ١٢٠ هـ .

٥ ـ يزيد بن أبى حبيب توفى عام ١٢٨ هـ .

٦ ـ عبد الرحمن بن شريح مات عام ١٦٧ هـ .

٧ ـ الليث بن سعد (٩٤ ـ ١٧٥ هـ) .

٨ ـ البويطى تلميذ الامام الشافعى ، توفى عام ٢٣٦ هـ .

٩ ـ المزنى (١٧٥ ـ ٢٦٤ هـ) .

١٠ ـ يونس بن عبد الأعلى (المتوفى عام ٢٦٤ هـ) .

١١ ـ الامام القرافى المتوفى عام ٦٨٤ هـ .

١٢ ـ الامام ابن دقيق العيد (٦٢٥ ـ ٧٠٢ هـ) .

من أعلام المذهب الشافعى

ومن علماء جامعة الفسطاط فى الفقه الشافعى :

١ ـ الصيرفى ـ المتوفى عام ٣٣٠ هـ .

٢ ـ القضاعى ـ المتوفى عام ٤٥٤ هـ .

٣ ـ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ ـ ٦٩٠ هـ) .

٤ ـ العراقى ـ ولى خطابة جامع الفسطاط وتوفى عام ٥٩٦ هـ .

٥ ـ ابن المنير .

ابو جعفر النحاس

المتوفى عام ٣٣٩ هـ = ٩٥١ م

من شــيوخ جامعة الفســطاط الاسلامية ، وامام جليل من أئمة اللغــة والنحو والأدب والشــعر ، ومؤلف من كبار المؤلفين فى علوم العربية فى عصره ، وله شرح على المعلقات .

محمــد بن موسى

المتوفى عام ٣٥٧ هـ

ممن خرجتهم جامعة الفســطاط ، أخذ عن أبى جعفر الدينورى كتاب ســيبويه[1] .

محمد بن يحيى الرياحى

المتوفى عام ٣٥٨ هـ

من خريجى جامعة الفسطاط أخذ عن شــيخه أبى جعفر النحاس بالفســطاط ، وعاد الى قرطبة يدرس كتاب سيبويه لطلابه[2] .

ابن برى

٤٩٩ ــ ٥٨٢ هـ

امام العربية فى القرن السادس الهجرى فى مصر ، وأستاذ كبير من أســاتذة جامعة الفسطاط الاسلامية .

تخرج على يديه الكثير من علماء العربية وشيوخها ، ممن تصدروا حلقــات العلم فى الفسطاط فى مختلف المعاهد والمدارس الاسلامية .

---

(١) ٣٠٥ الزبيدى ، الانباه ٢١٦/٣ ، ابن الفرضى ٣٩٩/١ .
(٢) ٣٣٥ الزبيــدى ، ابن الفرضى ٣١٤/١ ، الانبــاه ٢٢٩/٣ ، ابن خلكان ٣٧٢/٤ .

مهلب بن حسن بن بركات

هو العلامة الأديب اللغوى النحوى ، من أساتذة الجامع العتيق — الفسطاط أو الجامعة الاسلامية الأولى بالفسطاط — .

تتلمذ على امام العربية ابن برى (٤٩٩ — ٥٨٢ هـ) الذى تصدر فى مسجد الفسطاط ، وكان اماما فى النحو وعلوم العربية .

ولمهلب كتاب « الشرح الرائد فى نظم الفرائد وحصر الشوارد » حققه ونشره د. محمود حسن أبو ناجى الشيبانى عام ١٤٠٦هـ — ١٩٨٥م، وهو منظومة شعرية فى أبواب مختارة من النحو العربى مع شرحها لمهلب أيضا .

وقد عثر المحقق على نسخة وحيدة فى الاسكوريال برقم ٢٧٤ بخط الشيخ زكريا الأنصارى وورث هذه النسخة ابنه محمد شمس ابن زكريا الأنصارى .

ابن هشام النحوى المصرى

المتوفى نحو عام ٥٧٥ هـ

كان سيبويه زمانه ، وله تآليف مشهورة فى النحو منها : قطر الندى ، والشذور والمغنى ، وسواها .

ابن عقيل

٦٩٨ — ٧٦٧ هـ

ومن علماء النحوى ابن عقيل شارح ألفية ابن مالك .

علماء الادب

١ — ومن علماء جامعة الفسطاط فى آداب اللغة العربية : الناشىء الأكبر المتوفى ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م ، وله كتاب « نقد الشعر » وهو مفقود.

٢ ــ ومن أشـــهر النقـاد المصريين ابن أبى الأصـبع المتوفى عام ٦٥٤ هـ ، وله العديد من المؤلفات •

المتنبى فى جامعة الفســطاط

وكان للمتنبى حلقة فى جامعة الفسـطاط أثناء اقامتـه فى مصر (٣٤٦ ــ ٣٥٠ هـ) وكان يجلس اليه النقاد والشعراء وسواهم •

المؤرخون المصريون فى جامعة الفسطاط

نبغ علماء مصريون عديدون فى التاريخ ، وهم ممن خرجتهم جامعة الفســطاط الاسلامية ، ومنهم :

١ ــ الكندى محمد بن يوسف (٢٨٣ ــ ٣٥٠هـ = ٨٩٧ ــ ٩٦١م)، وكتابه « الولاة والقضاة » مشهور ، وكان من السـابقين فى الكتابة حول خطط مصر وآثارها وتاريخ قضائها ، وحـذا حذوه مؤرخـون عديدون من أشهرهم : ابن زولاق ، والقضـاعى ، وابن دقماق ، ثم المقريزى والسـيوطى •

وتابعه فى الكتابة عن تاريخ القضـاة : ابن زولاق وابن حجر ، وابن شـاهين •

٢ ــ ابن عبد الحكم المتوفى فى الفسطاط عام ٢٥٧ هـ ــ ٨٧١ م ، وله كتاب « فتوح مصر والمغرب » •

٣ ــ ابن زولاق (٣٠٦ ــ ٣٧٨ هـ = ٩١٨ ــ ٩٨٨) وقد درس فى جامعة الفســطاط ، وله مؤلفات فى سيرة الأخشـيد ، وسـيرة جوهر ، وسيرة المعز ، وسيرة العزيز ، وكتاب فى فضائل مصر ، وآخر فى خطط مصر[1] •

٤ ــ الأمير المختار معز الملك المسبحى •

وقد كتب علماء جامعة الفسطاط فى السيرة النبوية ومن أشهرهم : ابن هشام صاحب السيرة المتوفى عام (٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) •

---

(١) ٣٢٩ مصر فى فجر الاسلام ــ د. سيدة اسماعيل كاشف .

من مفكرة الاعلام

— ١ —

من علماء جامعة الفسطاط كذلك :

١ — عثمان بن سعيد المصرى (١١٠ — ١٩٧ هـ) امام القراءات وهو الملقب بورش .

٢ — عبد الله بن عمرو بن العاص (٣٦ — ٦٨ هـ) .

٤ — عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث (١٢٤ — ٢٠٠ هـ) .

٤ — البويطى أبو يعقوب يوسف بن يحيى القرشى تلميذ الشافعى وخليفته فى حلقته مات فى السجن فى بغداد فى فتنة القول بخلق القرآن عام ٢٣١ هـ .

٥ — سعيد بن كثير المصرى قاضى الديار المصرية وكان فقيها نسابة أخباريا شاعرا ، روى عن مالك والليث (١٤٦ — ٢٢٦ هـ) .

٦ — يونس بن عبد الأعلى الامام الفقيه المحدث المقرىء تلميذ الشافعى (١٧٠ — ٢٦٤) .

٧ — الطحاوى المحدث انتهت اليه رياسة الحنفية بمصر (٢٣٩ — ٣٢١ هـ) .

٨ — اسحاق بن الفرات تلميذ الليث بن سعد توفى عام ٢٠٤ هـ .

٩ — اسحاق بن بكر (ت ٢١٨ هـ) .

١٠ — محمد بن عثمان الثقفى أبو زرعة أول قاض شافعى بمصر ولى القضاء عام ٢٨٤ هـ .

١١ ـ اسماعيل الكندى أول قاض حنفى بمصر ، تولى القضاء عام ١٦٤ هـ .

١٢ ـ بكار بن قتيبة (٢١٠ ـ ٢٧٠ هـ) من قضاة مصر الأحناف.
١٣ ـ الوليد بن محمد التميمى النحوى المشهور بولاد ولد بالبصرة وتتلمذ على الخليل ومات بمصر سنة ٢٦٣ هـ .

١٤ ـ محمد بن ولاد التميمى النحوى (٢٤٨ ـ ٢٩٨ هـ) .
١٥ ـ ابن بابشاذ النحوى المصرى (٢٠٠ ـ ٢٣٩ هـ) .
١٦ ـ محمد بن على الأدفوى المصرى النحوى المفسر كان سيد أهل عصره بمصر، وله كتاب فى التفسير فى ١٢٠ مجلدا سماه « الاستغناء فى علوم القرآن » .
١٧ ـ القضاعى المصرى الفقيه المحدث والمؤرخ (٣٩٠ ـ ٤٥٤هـ).

ـ ٢ ـ

كان سيبويه المصرى (٢٨٤ ـ ٣٥٨ هـ) ممن نقد المتنبى ، وكذلك الشاعر الأنصارى الذى نقد المتنبى فى مجلس كافور (٣٧٣/١ يتيمة الدهر للثعالبى) ، وكان يتعالى على المتنبى عند الأمراء والوزراء ويهجوه ، وسواهما ، ممن كانوا يلوذون بابن الفرات ، ومن بينهم أبو القاسم بن العفير وابن وكيع .

وهناك طائفة من الشعراء صاحبت المتنبى وأحبته مثل : عبد الله ابن محمد بن أبى الجوع (ـ ٣٩٥ هـ) ، وصالح بن رشدين الكاتب .

ـ ٣ ـ

كان الشافعى يجلس فى حلقته فى جامعة الفسطاط ، ومن حوله ابنه أبو عثمان ، وتلميذه الحميدى ، ومحمد بن صديقه القرشى عبد الله ابن الحكم (١٨٢ ـ ٢٦٨ هـ) ، وأبناء عبد الله بن الحكم كانوا نجوم الفسطاط : عبد الرحمن المؤرخ ، ومحمد الفقيه (ـ ٢٦٨ هـ) ، وعبد الحكم (ـ ٢٣٧ هـ) .

من ذاكرة التاريخ

— ١ —

فى يوم الخميس أول ربيع الثانى عام ١٩٩ هـ ــ التاسع عشر من نوفمبر عام ٨١٤ ، أى منــذ أثنى عشر قرنا هجــريا وثمانية عشر عاما أو ١١٨٢ عاما ميلاديا وفد على مصر الفسطاط من مكة المكرمة عالم قريش وامامها ، محمد بن ادريس الشــافعى ، ومعــه ابنه أبو عثمان محمد (ــ ٢٣٢ هـ) ، ومعه كذلك زوجه حميــدة حفيدة الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، ثم ابنتاه زينب وفاطمة ، وذلك للاقامة الدائمة فيها ، وكان فى ركبه تلميذه أبو بكر الحميدى (ــ ٢١٩ هـ) .

وكانت شهرة محمد بن ادريس العلمية ملء الأســماع والبقاع ، فالعالم الاسلامى كله يذكره بالخير والتقدير والاكبار ..

وصــادف دخوله الفســطاط دخــول نائب والى مصر الجديد ، الأمير العباسى ، عبد الله بن عباس بن موسى . وكان الخليفة المــأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ) قد ولى العباس بن موسى على مصر ، فبعث ابنه عبد الله الى الفسطاط نائبــا عنه فى حكم البلاد فدخلها فى اليوم الذى دخل فيه الشــافعى مدينــة مصر وعاصمتها ، وقبلة الاســلام فيها ، الفســطاط .

ونزل ابن ادريس فيها على أخواله من الأزد ، ثم كان فى ضيافة عبد الله بن عبــد الحكم القرشى (١٥٥ ــ ٢١٤ هـ) ، وهو صــديقه وزميله فى طلب العلم فى حلقة الامام مالك ، رضى الله عنه ، فى المدينة المنورة ...

وأخذ ابن ادريس يتردد على جامعــة ، أو جامع ، الفســطاط ، للصلاة ، ولحضور حلقات العلم فيه وكان أبو رجب الخــولانى العلاء ابن عاصم يتولى امامة الجامع العتيق ، جامع عمرو ، أو تاج الجوامع ،

ويلقى قصص السيرة والفتوح ، فى احدى حلقاته ، وكان الشافعى يصلى خلفه ، ويقول فيه : ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب[1] ..

وها هوذا ابن ادريس عالم قريش ، « الذى ملأ طباق الأرض علما » كما وصفه الامام أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ) يجلس فى جامعة الفسطاط ، فى حلقة علمية خاصة به ، ومن حوله ابنه أبو عثمان ، وتلميذه الحميدى ، ومحمد (١٨٢ — ٢٦٨ هـ) ابن صديقه القرشى عبد الله بن عبد الحكم ، وكان محمد كأبيه مالكيا ، ولكنه أنس بالشافعى ، ووثق بعلمه ، ورغب فى الافادة منه ، فأخذ يتردد على حلقة صديق أبيه ، وخاف المالكيون ذلك وأنكروه لما فيه من وضوح الانصراف عن المذهب الى مذهب هذا القادم الجديد ، وشكوا الى أبيه ، فأخذ يخفف من حدتهم ، ويهدىء من ثورتهم ويقول لهم : ان ابنى محمداً شاب صغير ، يحب أن يستمع الى الآراء وأن يناقشها .

ثم كان اذا انفرد بابنه يقول له : يا بنى ، الزم ابن ادريس . وكان عبد الله اماما جليلا ، تصدر زعامة المذهب المالكى وتدريسه فى جامعة الفسطاط ، وألف كتبا فيه ، وأبناؤه الثلاثة : عبد الحكم (— ٢٣٧ هـ) ومحمد (— ٢٦٨ هـ) وعبد الرحمن المؤرخ ، كانوا نجوم الفسطاط ، ملأوا آفاقه علما وفضلا ، وقد جلسوا فى حلقة ابن ادريس ، وأفادوا من علمه وكان عبد الرحمن من أحرصهم على التردد عليها وكانت أسرة عبد الحكم فى الفسطاط أسرة جاه ومجد وعلم يأوى اليها العلماء والأدباء والشعراء ويستظلون بظلها ويلقون الكثير من برهم وكرمهم .

وتعهدت ابن ادريس بالبر والرعاية كذلك السيدة نفيسة بنت

---

(١) ١٣٥ ، ١٣٦ جـ ٢ حسن المحاضرة للسيوطى .

الحسن الأنور : حفيدة زيد بن الحسن بن على (١٤٥ ــ ٢٠٨ هـ) وكانت قد هاجرت الى الفسطاط عام ١٩٣ هـ ، وأقامت فيه ، فرارا من اضطهاد العباسيين للبيت العلوى ، وظلت فى مصر هى وزوجها ، اسحاق بن الامام جعفر الصـادق رضى الله عنهم ، وعاشت فى الفسطاط خمسة عشر عاما الى أن وافاها الأجل عام ٢٠٨ هـ ، وكانت حفاوتها بابن ادريس لا تعادلها حفاوة .

ورأى الناس عالمـا من قريش ، يجلس فى جامعتهم للتعليم ، يصلى فلا يرون أحسن صـلاة من صلاته ، ويتحدث فلا يسمعون أعذب حديثا من حديثه ، مع صباحة وجهه ، وواسع كرمه ، وعلو كعبه ، فافتتنوا به ، وواظبوا على الجلوس فى حلقته .

وخف الى مجلس ابن ادريس العلمى فى جامعة أو جامع الفسطاط : البـويطى (ــ ٢٣١ هـ) والربيـع الجيزى (ــ ٢٥٦ هـ) ، والمزنى (ــ ٢٦٤ هـ) ، والربيع بن سليمان المرادى (ــ ٢٧٠ هـ) ، ويونس ابن عبد الأعلى (١٧٠ ــ ٢٦٨ هـ) ، وغيرهم .

واتسعت حلقته اتساعا كبيرا ، حيث أخـذ الشافعى يلقى محاضراته فى الفقه وأصـوله وفى التفسـير والحديث ، وفى اللغة والأدب على الطلاب ، ويملى عليهم رسائله وكتبه .

مع ان حلقات العلم فى جامعة الفسـطاط كانت : كثيرة وكبيرة الا أن حلقة ابن ادريس كثر طلابها ومريدوها كثرة مذهلة ، وصـارت بكثرة المترددين عليها أكثر الحلقات ، وأعظمها أثرا فى خـدمة الدين واللغة والأدب .

وكان ابن هرم يكتب للأستاذ الجليل ابن ادريس ، والبويطى يقرأ له الدرس ، والطلاب يسمعون ثم يكتبون ، وفى زاوية انخشابية بالمسجد الكبير ــ الجامعة الاسـلامية الأولى فى مصر ــ التى عرفت بزاوية

ابن ادريس كان نسكه وعبادته ــ وكان يجلس فيها ليكتب ، ومن حوله تلاميذه ومريدوه •

ولما وقف الامام الشافعى على قبر الليث بن سعد (٩٣ــ١٧٥هـ)، قال : لله درك يا امام لقد حزت أربع خصال لم يحزهن عالم ، العلم والعمل والزهد والكرم •

وكان يبدأ دروسه بالقرآن وتفسيره ، ثم بالحديث وعلومه ، ثم بالفقه وأصوله ، ثم بالعربية وعلومها •

وكان يقول : من تعلم القرآن عظمت قيمته ، ومن كتب الحديث قويت حجته ، ومن نظر فى الفقه نبل قدره ، ومن نظر فى اللغة رقى طبعه ، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه • وكان يناظر سرج الغول الشاعر الأديب فى الأدب والشعر والنقد ، وكان لسرج حلقة أدبية كبيرة فى الجامع العتيق •

وكان لا بد أن يغضب المالكيون خوفا على مكانتهم الروحية التى زعزع منها ابن ادريس ، اذ لم يصبحوا فى الصدارة كما كانوا من قبل ، حتى ان « فتيان بن أبى السمح » المالكي الفقيه ناظر الشافعى ، وأسرف فى اللدد والخصومة فى مناظرته ، ووجه الى ابن ادريس كلاما لا يصح أن يقال له ، فعلم أمير مصر بالأمر ، فعاقب ابن أبى السمح عقابا شديدا زاجرا • وأخذ تلاميذ « فتيان بن أبى السمح » يطاردون كل من يذهب الى حلقة الشافعى ، غضبا لأستاذهم • وجاء عيسى بن المنكدر قاضى مصر فيما بعد على مدى عامين (٢١٢ ــ ٢١٣ هـ) الى الأستاذ العظيم ابن ادريس يلقى عليه اللوم لأنه أحدث مذهبا جديدا ، ولكن الجماهير كانت بالمرصاد لكل من حاول أن يمس مكانة الأستاذ الجليل ، كما كان والى مصر « السرى » (المتوفى عام ٢٠٥ هـ) بالمرصاد لابن أبى السمح حيث عاقبه عقابا رادعا •

وكان الامام ابن ادريس يذكر مكة المطهرة فى شوق كبير اليها ،

ويذكر امام بغداد أحمد بن حنبل (١٦٤ — ٢٤١ هـ) بالشوق والحب ويقول : « لقد وعدنى أحمد أن يقدم الى مصر » ويقول لتلميذه يونس ابن عبد الأعلى (٢٧٠ هـ) يا يونس أدخلت بغداد ؟ فرد عليه يونس : لا ، قال : ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس •

وكان ابن ادريس يقول عن ابن عبد الأعلى : ما رأيت أحدا أعقل من يونس بن عبد الأعلى • وكان أحمد بن حنبل يقول فى الشافعى : « كان الشافعى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس » ، ويقول عنه : ما علمت أحدا أعظم منة على الاسلام فى زمن الشافعى من الشافعى ، ويقول ما رأيت أحد أفقه فى كتاب الله تعالى من هذا القرشى •

والشافعى ينتمى الى هاشم بن عبد المطلب ، ويلتقى مع رسول الله فى عبد المطلب ، وروى عنه قال : ولدت بغزة سنة خمسين ومائة ، يوم وفاة أبى حنيفة ، فقال الناس : مات امام وولد امام ، وحملت الى مكة وأنا ابن سنتين ، وكانت أمى من الأزد •• وفى غزة عاش الشافعى مع أمه يتيما عامين ، بين غزة وعسقلان •• ثم ذهبت به الأم الى بلده مكة البلد الحرام ، فلما جاوز الرابعة من عمره أقبل على القرآن الكريم يحفظه ، وما أتم السابعة الا وقد أتم حفظه وتجويده •

ويقص عن نفسه قصة حياته الأولى فيقول :

— خرجت الى البادية ، فلزمت هذيلا ، أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم •

ويقول محمد ابن بنت الشافعى : أقام الشافعى على تعلم العربية وأيام الناس عشرين سنة ، وكان يقول : ما أردت منه الا الاستعانة به على الفقه •

وكان يحفظ من شعر الهذليين وحدهم عشرة آلاف بيت ، عــدا ما حفظه من شعر العرب وخطبهم وبلاغتهم .

أخــذ فى المسجد الحرام العلم والفقه عن أئمة الفقه والتفســير والحديث واللغة ، وجلس فى حلقة مسلم بن خالد الزنجى ، مفتى مكة وفقيهها (١٨٠ هـ) . وسفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) شــيخ المحدثين ، وكان سفيان يقول فيه : هــذا أفضل فتيان أهل زمانه .

ويروى عن الشافعى أنه قال : كنت أنا فى الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبى الآية فأحفظها أنا ، ولقد كنت ــ قبل أن يفرغ المعلم من الاملاء ــ قد حفظت جميع ما أملى ، فقال لى ذات يوم : ما يحل لى أن آخــذ منك شــيئا ، قال : ثم لمــا خرجت من الكتــاب كنت أتلقط الأشــياء ، أكتب فيها الحديث وأجىء الى الدواوين فاســتوهب منها الظهور[1] فأكتب فيها ثم انى خرجت عن مكة فلزمت هذيلا فى البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب .

قال : فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة جعلت أنشــد الأشعار وأذكر الآداب والأخبــار وأيام العرب ، فمر بى رجل من الزبيريين من بنى عمى فأرشدنى الى مالك ابن أنس ســيد المسلمين يومئذ (٩٤ ــ ١٧٩ هـ) فعمدت الى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته فى تســع ليال ظاهرا قال : ثم دخلت الى والى مكة وأخذت كتابه الى والى المدينة ، والى مالك بن أنس ، قال : فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب الى الوالى ، فلمــا أن قرأ قال : يا فتى ان مشيى من جــوف المدينة الى جوف مكة حافيــا راجلا أهون على من المشى الى باب مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف على بابه ، فقلت : ــ أصلح الله الأمير ــ ان رأى الأمير أن يوجــه اليــه ليحضر ، قال هيهات ، ليت انى اذا ركبت أنا ومن معى وأصابنا من تراب

---

(١) أى الأوراق .

العقيق قلنـا بعض حاجتنا ، قال : فواعدته العصر وركبنـا جميعا ، فوالله لكان كما قال : لقد أصـابنا من تراب العقيق . قال : فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت الينا جارية سـوداء فقال لها الأمير : قولى لمولاك انى بالباب قال : فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت : ان مولاى يقرئك السلام ويقول: ان كانت لك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج اليك الجواب. وان كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولى له ان معى كتابا من والى مكة اليه فى حاجة مهمة . قال : فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعته ، ثم اذا أنا بمالك قـد خرج وعليـه المهابة والوقار . وهو شيخ طويل ، فجلس فرفع اليه الوالى الكتاب فبلغ الى هـذا « ان هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع » ، فرمى بالكتاب من يده ثم قال : سبحان الله ! أو صـار علم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يؤخذ بالرسائل ؟ .. قال : فرأيت الوالى تهيبه أن يكلمه فتقدمت اليه وقلت : ــ أصلحك الله ــ انى رجل مطلبى ومن حالى وقصتى ، فلما سمع كلامى نظر الى ساعة وكانت لمـالك فراسـة فقال لى : ما اسمك ؟ قلت : محمد ، فقال لى : يا محمـد : اتق الله واجتنب المعاصى ، فانه سيكون لك شـأن من الشأن . ثم قال : نعم وكرامـه ، فاذا كان غـد تجىء ويجىء ويجىء من يقرأ لك ، قال : فقلت أنا أقوم بالقراءة . فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهرا والكتاب فى فى يدى فكلما تهيبت مالكا واردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتى واعرابى فيقول يا فتى زد حتى قرأته[1] فى أيام يسيرة ، ثم أقمت بالمدينة حتى توفى مالك بن أنس ، ثم خرجت الى اليمن[2] فارتفع لى بها الشـأن وكان بها وال من قبـل الرشـيد ، وكان ظلوما غشـوما وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه من الظلم ، قال : وكان باليمن تسـعة من العلوية

(١) أى الموطا .
(٢) ولى قضاءها بمسـاعدة مصعب بن عبد الله القرشى وتوصيته عنـد والى اليمن .

قد تحركوا — فكتب الوالى — وانى أخاف أن يخرجوا وان ههنا رجلا من ولد شافع المطلبى لا أمر لى معه ولا نهى . قال : فكتب اليه هارون الرشـــيد : ان أحمل هؤلاء واجعـل الشـــافعى معهم . فقرنت معهم قال : فلما قدمنا على هارون الرشيد[1] أدخلنا عليه وعنده محمد بن الحسن . قال : فدعا هارون الرشـــيد بالنطع[2] والســـيف ، وضرب رقاب العلوية ، ثم التفت محمد بن الحسن (١٣٢ — ١٨٩ هـ) فقال : يا أمير المؤمنين ، هـــذا المطلبى لا يغلبنك بفصاحته فانه رجل لسن ، فقلت مهلا يا أمير المؤمنين ، فانك الداعى ، وأنا المدعو ، وأنت القادر على ما تريد منى ولست القادر على ما أريد منـــك . يا أمير المؤمنين ما تقول فى رجلين أحدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده أيهما أحب الى ؟ قال : الذى يراك أخاه . قال : قلت فذاك أنت يا أمير المؤمنين . قال فقال لى : كيف ذلك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين : أنكم ولد العباس تروننا اخوتكم وهم يروننا عبيدهم . فسرى ما كان به ، فاســـتوى جالســـا فقال : يا ابن ادريس : كيف علمك بالقرآن ؟ قلت : عن أى معلومة تسألنى ؟ عن حفظه قد حفظته ووعيته بين جنبى وعرفت وقفه وابتداءه ، وناســـخه ومنســـوخه وليليه ونهاريه ووحشـــيه وأنسيه وما خوطب به العام يراد به الخاص ، وما خوطب به الخاص يراد به العام . فقال لى : والله يا ابن ادريس لقد ادعيت علما فكيف علمك بالنجوم ؟ فقلت : انى لأعرف منها البرى من البحرى والسهلى والجبلى والمصـــبح وما تجب معرفته . قال : فكيف علمك بانســـأب العرب ؟ قال فقلت انى لأعـــرف أنســـاب اللئـــام وأنســـاب الكـــرام ونسبى نسب أمير المؤمنين . قال : لقد ادعيت علما فهل من موعظة تعظ بهـــا أمير المؤمنين ؟ قال : فذكرت موعظة الطاووس اليمانى فوعظته بهـــا ،

---

(١) كان ذلك عام ١٨٤ هـ .

(٢) بســـاط من الجلد .

فبكى ، وأمر لى بخمسين ألفا ، وحملت على فرسى ، وركبت بين يديه وخرجت ، فما أن وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفا على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه .

وبلغ الامام الشافعى منزلة عالية ، امامة فى الدين والفقه والأصول والحديث واللغة والأدب والشعر والنقد .

حدث الربيع بن سليمان قال : سمعت عبد الملك بن هشام النحوى صاحب المغازى يقول : الشافعى ممن تؤخذ عنه اللغة . وقال أحمد بن حنبل : كان الشافعى من أفصح الناس ، وكان مالك تعجبه قراءته لأنه كان فصيحا .

وحدث أبو عبيد القاسم بن سلام قال : كان الشافعى ممن يؤخذ عنه اللغــة .

وقال الربيع بن سليمان : كان الشافعى عربى النفس عربى اللسان.
وقال أحمد بن أبى سريج : ما رأيت أحدا أفوه ، ولا أنطق من الشــافعى .

وكان الجاحظ يقول فيه : كأن لسانه الدر ..

ويقول أحمد بن حنبل فيه لبعض أصحابه : تعال حتى أريك اليوم رجلا لم تر عيناك مثله ، ان فاتك عقله فانى أخاف الا تجده الى يوم القيامة ..

وحدث أبو نعيم الاستراباذى ، سمعت الربيع يقول : « لو رأيت الشافعى وحسن بيانه وفصاحته لعجبت منه ، ولو أنه ألف هــذه الكتب على عربيته — التى كان يتكلم بها فى المناظرة — لم يقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه — غير أنه كان فى تأليفه يجتهد فى أن يوضح للعوام » .

وقال الجاحظ : نظرت فى كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم ، فلم أر أحسن تأليفا من المطلبى (الشـافعى) ، كان فى كلامه ينظم درا الى در ..

وقال الامام أحمد : « ما مس أحد محبرة ولا قلما الا وللشـافعى فى عنقه منة » .

وقال الذهبى : « كان حافظا للحديث بصيرا بعلله ، لا يقبل منه الا ما ثبت عنده ، ولو طال عمره لازداد منه » ..

واتصل الأصمعى بالشافعى يأخذ عنه شعر الشنفرى وشعر هذيل ويتعلم منه روايته وفصيحه وغريبه ، روى أبو عثمان المـازنى قال : سمعت الأصمعى يقول : قرأت شعر الشنفرى على الشافعى بمكة .

وحكى الحسين بن أحمد البيهقى الفقيه ببغداد قال : سمعت حسان ابن محمد يحكى عن الأصمعى أنه قال : صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمـد بن ادريس الشافعى ، قال : وحكى لنا عن مصعب الزبيرى قال : كان أبى والشافعى يتناشدان ، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا .

ويقول عبـد الجبار الجومرد فى كتابه « الأصمعى » عن المزهر للسيوطى : إنه درس ديوان الشاعر الجاهلى الشنفرى وشعر بنى هذيل فى مكـة على محمـد بن ادريس صـاحب المذهب الشـافعى : ثم قال : والظاهر أنه درس ذلك فى أواخر أيامه وهو مسن ، فى حين كان أسـتاذه أصغر منه سنا .

وحدث الصولى عن المبرد أنه قال : كان الشافعى من أشعر الناس وآدب الناس وقال ابن رشيق : أما محمد بن ادريس الشافعى فكان من أحسن الناس افتنانا فى الشـعر .

والشافعى فى لغته كلها معجب فاتن ، وقال ابن هشام ، جالست الشافعى زمانا فما سمعته تكلم بكلمة الا اعتبرنا المعتبر لا يجد كلمة

فى العربية أحسن منها وقال ابن هشام : الشافعى كلامه لغة يحتج بها ، وقال : كانت لغته فتنة . وحدث عنه قال : كان قوم من أهل العربية يختلفون الى مجلس الشافعى معنا ويجلسون ناحية قال : فقلت لرجل من رؤسائهم : انكم لا تتعاطون العلم (أى الفقه) فلم تختلفون معنا ؟ قالوا : نسمع لغة الشافعى .

ومع علو لغة الشافعى فى كل أقواله فان شعره سهل ممتنع ، ولعلك اذا قست قطعة من نثره بقطعة من شعره بدأ لك الفرق بين اللغتين ، فانه فى النثر يختار أجزل الألفاظ ، ويميل الى الغرب الصعب ..

قرأ الشافعى كتب أبى حنيفة (١٥٠ هـ) ، وأصحابه : أبى يوسف (١١٣ — ١٨٣ هـ) ومحمد بن الحسن (١٢٢ — ١٨٩ هـ) : وأملى مذهبه القديم فى بغداد وكان قد ذهب اليها عام ١٨٤ هـ ، ثم زارها ثانية عام ١٩٥ هـ .

وعاد الى مكة عام ١٩٧ هـ ، ولم يلبث أن تركها الى بغداد ، فدخلها للمرة الثالثة عام ١٩٨ هـ ، ليقيم فيها عدة أشهر ، يرحل بعدها الى مصر الفسطاط ، والى جامعة الفسطاط ، فى رحلته الخالدة ، التى جاءت فى نهايات حياته .

— ٢ —

وفى مصر الفسطاط كانت قد نشأت مدارس فقهية كثيرة ، فيها نبغ عبد الله بن وهب (١٢٤ — ٢٢٠ هـ) أحد الأئمة المجتهدين ، والليث بن سعد (٩٤ — ١٧٥ هـ) فقيه مصر وامامها ومحدثها ، ومن تلامذة الليث : اسحاق بن الفرات (٢٠٤ هـ) واسحاق بن بكر (٢١٨ هـ) .

وحل الشافعى بالفسطاط ، فقاد حركة فقهية جديدة ، كان لها صداها العميق فى العالم الاسلامى .

وكان أهل مصر يعتمدون على فتاوى عبد الله بن عمرو بن العاص

(٦٨ هـ) من الصحابة ، ويزيد بن أبى حبيب (ــ ١٢٨ هـ) من التابعين ، وأهل مكة يتبعون فتاوى عبد الله بن مسعود (ــ ٣٦ هـ) وتلاميذه من التابعين ، وأهل البصرة يعتمدون على فتاوى أبى موسى الأشعرى وأنس بن مالك من الصحابة ، والحسن البصرى .. وابن سيرين (١١٠ هـ) من التابعين ، وأهل الشام يتبعون فتاوى معاذ بن جبل (ــ ٢٨ هـ) ، وعبادة بن الصامت (ــ ٣٤ هـ) من الصحابة ، وعمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ) وأضرابه من التابعين .

وظهر أعلام من الفقهاء المشرعين ، الذين كانت لهم آراء ومذاهب فى التشريع الاسلامى وفى مقدمتهم :

ــ سعيد بن المسيب بالمدينة (ــ ٩٤ هـ) .
ــ عروة بن الزبير بالمدينة (٩٤ هـ) .
ــ سفيان بن عيينة بمكة (١٩٨ هـ) .
ــ ابن أبى ذئب .
ــ ابن جريج (ــ ١٥٠ هـ) .
ــ عكرمة مولى ابن عباس (١٠٧ هـ) .
ــ الامام الزهرى (٥١ ــ ١٢٤ هـ) .
ــ ربيعة الرأى (١٣٦ هـ) .
ــ عبد الرحمن بن مهدى (١٣٥ ــ ١٩٨ هـ) .
ــ ابراهيم النخعى بالكوفة (ــ ١٩٦ هـ) .
ــ الحسن البصرى بالبصرة (ــ ١١٠ هـ) .
ــ سفيان الثورى بالكوفة (١٦١ هـ) .
ــ الليث بن سعد بمصر (٩٣ ــ ١٧٥ هـ) .

ـ الامام الأوزاعى بالشام .

وتجمعت المذاهب التشريعية فى تيارين أو مدرستين كبيرتين : مدرسة أصحاب الحديث ومدرسة أصحاب الرأى .

ولما وفد الشافعى على مصر أملى فيها ، فى جامع الفسطاط ، على تلاميذه ، كتبه الجديدة التى يجمعها كتابه الخالد « الأم » الذى أجمل فيه مذهبه الجديد ، وهو المذهب الذى وصل اليه باجتهاده فى مصر .

وأساس مذهبه أن الأصل هو القرآن والسنة ، ثم القياس فالاجماع . يقول الكرابيسى (٢٠٤ هـ) : ما كنا ندرى ما الكتاب ولا السنة ولا الاجماع ، حتى سمعنا الشافعى يقول ذلك . والسنة الصحيحة عند الشافعى تلى القرآن الكريم ، وقد كان يقول : « اذا صح الحديث فهو مذهبى » .

وقد دافع دفاعا قويا عن العمل بخبر الواحد الصحيح ، مما نال عليه حظا كبيرا عند أهل الحديث ، ولذا سماه أهل بغداد « ناصر السنة » وقال محمد بن الحسن فيه : « ان تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعى » ، وقال الزعفرانى : « كان أصحاب الحديث رقودا حتى جاء الشافعى فأيقظهم فتيقظوا » .

وقد ترك الشافعى الاستحسان الذى قالت به الأحناف والمالكية ، بل لقد أنكره ، ولم يقل بالقياس الا اذا كانت علته منضبطة ، ورد المصالح المرسلة ، وأنكر الاحتجاج بعمل أهل المدينة ، وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه واسعا . وهو بذلك يجمع بين فقه مدرسة أهل الرأى وفقه مدرسة أصحاب الحديث .

وكتابه « الرسالة » تحمل أبوابه أصول دفاعه عن السنة وحديث الواحد وشروط صحة الحديث والخبر المرسل ، ويقول تلميذه المزنى

(١٧٥ — ٢٦٤ هـ) : قرأت كتاب الرسالة للشافعى خمسمائة مرة ، وما من مرة منها الا واستفدت بفائدة جديدة لم استفدها فى الأخرى . وبالرسالة وضع الشافعى علما كاملا ، هو علم أصول الفقه ، وقد عاصر الشافعى الامام أحمد (١٦٤ — ٢٤١ هـ) الذى عرف بشدة اعتماده على الرواية ولقد أذهلت « الرسالة » للشافعى الامام أحمد وغيره من جلة العلماء كابن مهدى الذى قال فيها بعد أن قرأها : لما نظرت الرسالة للشافعى أذهلتنى .

وفى مصر الفسطاط دون كتب الامام ابن ادريس الشافعى تلاميذه المصريون : المزنى ، البويطى ، يونس بن عبد الأعلى ، الربيع الجيزى ، الربيع بن سليمان المرادى ، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم . (— ١٧٥ هـ) .. وفى مقدمتها « الرسالة » و « الأم » .. وكان الشافعى قد أملاهما على تلاميذه فى حلقته بجامعة الفسطاط .

ولم يزل الشافعى مقيما بالفسطاط ناشرا للعلم ، ملازما للتدريس بجامعة عمرو ، « أو جامعة الفسطاط » ، كما يقول السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة (١٢٢ : ١) طبعة الشرفية .

وفى جامع عمرو « جامعة الفسطاط » كان ابن ادريس الجليل يجالس العلماء والأدباء والنقاد والشعراء ورجال البلاغة والبيان ، ويجالس جماهير الناس ، مع مرضه المزمن الذى عذبه طويلا ، وهو داء « البواسير » . وكان فى حلقته : عالم اللغة العميق الاطلاع على كنزها ، وراوية الشعر الجيد المختار ، ومؤرخ الأحداث الموهوب الذكى .

وفى آخر عمره تزوج الشافعى أم ولدة « دنانير » ، بعد وفاة زوجته حميدة ، وأنجب من دنانير ابنه « أبا الحسن » عام ٢٠٢ هـ . وقد خصص له مرضعة أندلسية اسمها « فوز » . وبذلك كان له ولدان :

أبو عثمان محمد وأبو الحسن ، وبنتان هما : زينب وفاطمة . وهؤلاء الذين مات عنهم هـذا الامام الجليل .

وفضلا عن الرسالة التى وضع بها علم أصول الفقه ، والتى كتبها وأملاها على تلاميذه فى جامعة الفسطاط ، ألف فى الفسطاط كتاب « أحكام القرآن » ، وكتاب « اختلاف الأحاديث » ، وكتاب « ابطال الاستحسان » ، وكتاب « جماع العلم » ، وكتاب « القياس » ، وكتاب « الرد على محمد بن الحسن » ، وكتاب « اختلاف مالك والشافعى » ، وكتاب « اختلاف على وعبد الله بن مسعود » ، وكتاب « ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبى ليلى عن أبى يوسف » ، وكتاب « خلاف ابن عباس » ، وكتاب « سير الأوزاعى » ، وكتاب « مسند الشافعى » .. أما كتابه « الحجة » فقد ألفه فى بغداد .. وهكذا أفاد الشافعى الناس والمتعلمين والمثقفين فوائد جليلة ، وقد ظل يكتب ويقرأ ويدرس ، والمرض يحاصره حتى سقط القلم من يده ، واستأثرت به رحمة الله تعالى ، يوم الجمعة ، التاسع والعشرين من رجب عام ٢٠٤ هـ ــ ٨٢٠ م ، رحمه الله تعالى .

ــ ٣ ــ

الشافعى وجامعة الفسطاط الاسلامية :

١ ــ دخلت مصر فى الاسلام ، واستظلت بلوائه ، وحملت راية العروبة لأول مرة ، منذ فتحها القائد العربى المسلم عمرو بن العاص عام ٢١ هـ/٦٤٢ م . وبفضل عبقرية هـذا القائد العظيم انتهى حكم الرومان لمصر ، هذا الحكم الاستعمارى المدمر ، ومات هرقل الامبراطور الرومانى وقد شاهد هزيمة جيشه ، وانحسار نفوذ امبراطوريته ،

---

(١) الفسطاط كان الرائد الاول فى الكشف عن معالمه الاثرى المصرى على بهجت (١٨٥٨ ــ الجمعة ــ مارس ١٩٢٤) ، فله وحده يعود الفضل الاكبر فى التنقيب عن الفسطاط اول عاصمة اسلامية فى مصر ، حيث كشف عن حى كبير من احيائها ، وعثر على آثار كثيرة نادرة .. الى انه هو الذى اكتشف عقد زواج الجنرال مينو من السيدة زبيدة الرشيدى حيث عثر على صورته فى محكمة رشيد الشرعية عام ١٨٩٨ م وله كتاب عن الفسطاط صدر فى باريس عام ١٩٢١ م ، وقد رثاه أمير الشعراء احمد شوقى .

وضياع مستعمراتها ، ودانت مصر كلها بالطاعة للحكم الاسلامى ، مرحبة بانتهاء العصر الذى أورث بنيها الفقر والهوان .

وبنى عمرو عقب الفتح مدينة الفسطاط لتكون العاصمة الاسلامية الأولى لمصر . وقد ابتنى مسجده الجامع عام ٢١ هـ ، واتخذ الأماكن التى نزل بها جيشه معسكراً عاما ، وبنى حوله مدينة الفسطاط ، يتوسطها المسجد الجامع ، وأخذ يرفع الظلم عن كاهل المصريين ، ويعاملهم بالعدل والانصاف والرحمة ، وأكبر المصريون شريعة عمرو ولغته ودينه ، فدخلوا فى الاسلام أفواجا .

ويحدثنا التاريخ أن عمرو بن العاص (٤٧ ق هـ — ٤٣ هـ) بعث الى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة معاوية بن خديج ، بشيرا بالفتح ، فقدم معاوية المدينة وقت الظهيرة ، فأناخ راحلته أمام المسجد النبوى ، ثم دخله ، فبينما هو جالس فيه ، اذ خرجت طفلة من منزل عمر بن الخطاب ، يقول معاوية : فرأتنى شاحبا . وعلى ثياب السفر ، فأتتنى وقالت : من أنت ؟ فقلت : أنا معاوية رسول عمرو بن العاص ..

فانصرفت الطفلة عنى ، ثم أقبلت تعدو ، حتى لأسمع حفيف أزارها على ساقها ، حتى دنت منى ، ثم قالت : قم فأجب أمير المؤمنين . فتبعتها ، فلما دخلت المنزل اذا بعمر يتناول رداءه باحدى يديه ويشد آزاره باليد الأخرى ، فقال : ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الاسكندرية .. فخرج معى الى المسجد .. وقال للمؤذن : اذن ، الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لى : قم فأخبر أصحابك ، فقمت فخطبت فيهم ، ثم صلى ودخل منزله ، واستقبل القبلة ، فدعا بدعوات ، ثم جلس ، وطلب الطعام ، فقدم خبز وزيت ، فقال : كل فان المسافر يحب الطعام ، ولو كنت آكلا لأكلت معك ، فأكلت على حياء ، ثم قال : ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد ؟ قال : قلت : أمير المؤمنين نائم ، قال :

بئس ما ظننت ، لئن نمت النهار لاضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لاضيعن نفسى ، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ؟

٢ ــ وكان عمرو بن العاص مع هــذه الدنيا المقبلة ، والسعادة الغامرة ، والسلطة النافذة ، أسبق الناس الى الحق ، وأبعدهم عن باطل ، لم يعهــد عليــه أثناء ولايته على مصر نقض لعهــد ، ولا خفر لذمة ، ولا انتهاك لحرمة . وقد نهض بادارة شئون مصر ادارة حازمة رشيدة ، دستورها مبادىء الاسلام ، وشعارها الحق والعدل والمساواة والحرية .

وأخذت الفســطاط تتسع وتزدهر ، وصارت منــذ انشائها عام (٢١ ــ ٦٤٢ م) عاصمة مصر السياسية ، ومنارة الدين واللغة العربية والمعرفة والثقافة ومقر العمران والحضارة والرخاء أجيالا طوالا ..

وكان مسجد الفسطاط (أو مسجد عمرو بن العاص ، أو تاج الجوامع ، أو الجامع العتيق ، أو مسجد الراية) ، هو أول مسجد قام فى مصر العربية ، وكان هو بعد قليل جامعة الفسطاط الاسلامية الكبرى .

وكانت المساجد الكبرى فى العواصم الاسلامية ، لا تلبث بعد انشائها بقليل ، أن تتحول الى جامعات تغص بالعلمــاء وحلقات العلم والدراسة والبحث ، وبالطلاب ، وفى المدينة ومسجدها النبوى قامت أول جامعة اسلامية ، ثم قامت فى مكة وفى المسجد الحرام بعد ذلك جامعة أخرى ، وفى دمشــق والفسطاط والبصرة والكوفة ، قامت جامعات اسلامية مزدهرة .

وكذلك قامت فى القيروان وقرطبة وفاس ، وغيرها من العواصم الحضارية الجديدة المنتشرة فى شرق العالم الاسلامى وغربه جامعات جديدة تقيم صروحا شــامخة للثقافة والمعرفة والحضارة ، فرأينا بعد القرون الأولى جامعة الأزهر والقرويين والجامعة النظامية والمستنصرية فى بغــداد وغيرها .

٣ — ولقد أشرف على بناء المسجد الجامع والفسطاط أربعة من الصحابة ، هم : أبو ذر الغفاري ، وفهية بن صواب البصري ، ومحمشة ابن حمزة ، وأبو بصرة .

ومع أن عبد العزيز بن مروان ، الحاكم الأموى على مصر ، بعد إستردادها من أيدى الزبيريين « ٦٥ — ٨٦ هـ » ، قد بنى حلوان ، وانتقل من الفسطاط اليها ، ومع أن العباسيين أنشأوا مدينة العسكر عام ١٣٥ هـ شمال الفسطاط ، ومع انشاء أحمد بن طولون لمدينة القطائع عام ٢٥٤ هـ ، فان الفسطاط لم تتغير منزلتها السياسية والعلمية والأدبية ، ولم تهبط مكانتها بحال من الأحوال ، وحين دخل الفاطميون مصر نظروا الى الفسطاط على أنها العاصمة السنية لمصر ، فأداروا لها ظهرهم ، وأنشأوا القاهرة المعزية لتكون العاصمة السياسية والروحية لهم ، ولتكون صورة لعقيدتهم الشيعية وخلافتهم العلوية .

يحدثنا التاريخ ان المعز لما وصل مصر فى أوائل رمضان عام ٣٦٢ هـ خرج أعيان الفسطاط وأشرافها وعلماؤها لاستقباله فى الجيزة ، واستعدت الفسطاط لاستقباله ، وسار موكبه من الجيزة ، ثم جاز النيل الى الشاطىء الشرقى ، وأبى أن يدخل الفسطاط ، وجعلها وراء ظهره ، وأمر موكبه بالاتجاه الى عاصمته الجديدة التى سميت « المنصورية » ، ثم صدر أمر المعز فى ذلك الحين بأن تسمى القاهرة المعزية : وقد جمع المعز أشراف الفسطاط من العلويين ، وفى مقدمتهم أبو جعفر مسلم بن عبيد الله الحسينى ، وأبو اسماعيل ابراهيم بن أحمد الحسينى الرسى ، وأحد أبناء الشريف أبى محمد بن طباطبا العلوى ، وسل أمامهم سيفه ، وقال : هـذا نسبى ، ثم نثر عليهم ذهبا كثيرا وقال : هـذا حسبى ..

٤ — ولقد ازدهر الفسطاط بتوالى الأيام ، وصارت العاصمة الحضارية والعلمية والأدبية والاقتصادية لمصر كلها خلال أجيال عديدة ، وصارت من أكثر الأمصار الاسلامية عمرانا ورخاء وعظمة .

أقام عبد الله بن عمرو بن العاص داره فى الفسطاط على صورة الكعبة الشريفة ، وكان عبد الله المتوفى عام ٦٨ هـ ، من جلة العلماء والمحدثين .

وكانت دار الأمير الأموى عبد العزيز بن مروان « وهو والد عمر ابن عبد العزيز الخليفة الأموى العادل » فى الفسطاط من ست طبقات أو أدوار ، وفيها خمسة مساجد وحمامان .

وقد جلس الصحابة والتابعون فى مسجد عمرو ، يتصدرون الحلقات العلمية ، ومجالس العلم . وشجع ولاة مصر العلماء على نشر الثقافة العربية فى كل مكان فى أرض مصر ، وانشئت المساجد وأصبحت حلقاتها دورا للثقافة ، يتصدرها المحدثون والفقهاء والعلماء .

واستمرت الفسطاط تؤدى دورها الحضارى فى تاريخ مصر والعالم الاسلامى والانسانية ، حتى ليصفها الاصطخرى فى القرن الرابع الهجرى بأنها مدينة مصر العظمى ، وبأنها غاية العمران والخصب، وبأن مبانيها قد تبلغ الواحدة منها ثمانى طبقات .. وينوه كذلك ابن حوقل بأهميتها الحضارية ، ويقول عنها المقدسى : ان الفسطاط هى « عاصمة » مصر ومفخرة الاسلام ، ومتجر الانام ، وهى أجل من مدينة دار السلام ، ويقول ان حلقات مسجدها الجامع ليس فى عواصم الدنيا أكبر منها ، ومع أن الفسطاط دمرها حريق مروع فى عهد الحاكم الفاطمى، ثم أحرقها شاور الوزير الحاكم فى مصر عام ٥٦٤ هـ لئلا تقع فى أيدى الصليبيين ، وقد استمر هذا الحريق المدمر أربعة وخمسين يوما ، مما جعل المدينة تفقد شيئا فشيئا الكثير من أهميتها الحضارية والفكرية ــ الا أنها أخذت تضمد جراحها ، وتستمر فى أداء دورها ، حتى نهاية القرن السابع الهجرى ، فلا تجد لها فى القرن الثامن صدى أو ذكرا ، ومع ان اتخاذ المماليك للروضة مقرا لهم ، قد أضفى على الفسطاط المقابلة للروضة شيئا من الحياة ، الا أن هذا لم يجعلها تقف على قدميها كما كانت من قبل .

لقد ترك الفاطميون الفسطاط لشأنها ، لكن صلاح الدين والأيوبيين أقبلوا عليهـا بكل عطف وتقدير ، ثم جاء المماليك فاهتموا بالروضة واكتفوا بها عن غيرها . الا ان مواجهة الفسطاط للروضة جعل الحياة تتدفق فى شرايينها شيئا قليلا ، حتى أصابتها الشيخوخة وحطمتها ، ولقد زارها ابن سـعيد الأندلسى عام ٦٣٧ هـ وتحدث عن شـهرتها وماضيها العظيم ..

٥ ــ لقد قام مسجد الفسطاط بدور الجامعة الاسلامية الأولى فى مصر نحو سبعة قرون ، وعاشت هـذه الجامعة العلمية الكبرى فى ظلال ازدهار الفسطاط وعمرانها ورخائها ، حتى اذا دمرت الفسطاط وضاعت مكانتها الحضارية والفكرية والأدبية وأصابها الشلل ، والشيخوخة ــ انتهى دور هـذه الجامعة التى خدمت الاسلام والمسلمين أجيالا طوالا ــ بل خدمت العلم والانسانية كافة طيلة سبعة قرون .

وكان قيام الحلقات العلمية والأدبية فى جامع الفسطاط ، بعـد انشـائه بقليل ، رمزا لحركة البناء والتجديد وطموح العقل الاسلامى المصرى المتوثب دائما .

واعتقد ان عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل وابن أمير مصر عمرو بن العاص ، كان هو المؤسس الأول لهذا الصرح الشامخ ، ولهذه الجامعة الاسلامية الأولى فى مصر ، وكان عبد الله من أئمـة الصحابة ، والمحدثين ، ولا بد أن يكون قد صارت له حلقة علمية فى جامع الفسطاط ، يتصدرها ليفيد الناس فى دينهم ودنياهم ، من حيث يرى الدكتور على اليمنى دردير فى رسالته المخطوطة للدكتوراه التى عنوانها « الحياة الأدبية والنقدية فى الفسـطاط ومسجدها الجامع » أن يزيد بن حبيب الذى بعث به عمر بن عبـد العزيز الخليفة الأموى الى الفسطاط هو مؤسس مدرسة الفسطاط العلمية ، وهـذه الرسالة القيمة جديرة بأن تتبنى هيئة من هيئاتنا العلمية نشرها لأهميتها .

وعبد الله بن عمرو بن العاص كان بمثابة الروح البانى للحلقات العلمية الجامعية فى جامعة الفسطاط ، وقد أخذت هـذه الحلقات تكبر وتنمو شيئا فشيئا ، وتتسع دائرتها . وتفيد العقل المصرى الاسلامى الجديد فائدة جلى ، ويكون يزيد بن حبيب تاليا لعبد الله بن عمرو بن العاص فى ذلك المجال ، ويذكر الدكتور دردير نصا للسيوطى فى كتابه (« حسن المحاضرة » ١ /١١٩) هو أن يزيد بن حبيب كان « أول من أظهر العلم بمصر ، وبين المسائل فى الحرام والحلال وكان الناس قبله يتحدثون فى الترغيب والترهيب والملاحم والفتن » ، وكان الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز قد بعث به الى مصر ، كما بعث كذلك بنافع مولى عبد الله بن عمر « المتوفى عام ١٢٠ هـ » ليعلم أهلها السنن والقراءات ، وقد صار لنافع مدرسة علمية فى القراءات فى جامعة الفسطاط وكان من أعلامها : مجاهد بن جبير أحد العلماء الثقات فى القراءات ثم عثمان بن سعيد « ورش » الذى يذكر ياقوت فى « معجم الأدباء » أنه كان له مجلس عامر .

ومن مدرسة الحديث عطاء بن دينار الهذلى « المتوفى عام ١٢٦ هـ » وهو بالطبع يعد امتدادا لفكر عبد الله بن عمرو بن العاص ، ومن تلاميذ يزيد بن حبيب : ابن لهيعة « ٩٦ – ١٦٠ هـ » والليث بن سعد « ٩٤ – ١٧٥ »[1] وعبد الله بن وهب « ١٢٤ – ٢٠٠ هـ » الذى تأثر بآراء أستاذه الليث بن سعد بطريق مباشر ، وبآراء ابن حبيب بطريق غير مباشر .

وكان الامام أحمد بن حنبل يقول عن « ابن لهيعة » : « عنده الأصول وعندنا الفروع » ولابن وهب كتاب « الجامع فى الحديث » .. والليث بن سعد هو أحد المجتهدين الأعلام وصاحب مذهب من المذاهب المشهورة ، وكتاب تلميذه ابن وهب « الجامع فى الحديث » أقدم

(١) لما وقف الامام الشافعى على قبره قال : لله درك يا امام لقد حزت أربع خصال لم يحزهن عالم : العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم .

كتاب مصرى مخطوط بدار الكتب المصرية ، وعليه ما يفيد أن الكتاب قرىء فى مدينة اسنا عام ٢٧٦ هـ كما ورد فى « حسن المحاضرة » للسيوطى « ١٦٧/١ » .

وهكذا ازدهرت حركة جامعة الفسطاط « جامع عمرو » العلمية ، وزادت فيها مجالس العلم ، وحلقات العلماء ، زيادة كبيرة ، وأم هذا المسجد الجامع أو الجامعى الكثير من العلماء الأعلام ، والأئمة المجتهدين ، ممن أفادوا العالم الاسلامى ، وأدوا له خدمات صادقة فى مجال الثقافة والتعليم ، وفى مختلف علوم الشريعة والدين واللغة والأدب والعلوم الأخرى .

وقد قصد الكثير من الشعراء مصر ، ووفدوا الى الفسطاط وجلسوا فى حلقات جامعتها الاسلامية الكبرى : أبو تمام الطائى (١٩٠ ــ ٢٣١ هـ) تعلم فى هذه الحلقات ، وأبو نواس وفد على الخصيب أمير مصر ، وجلس فى حلقات المسجد الجامع وأفاد منها ، وفى رحاب هذه الجامعة لقى الكثير من الشعراء والأدباء والنقاد وحاورهم وحاوروه .

ومن قبل ذلك وفد على مصر وفسطاطها ومسجدها الجامع : جميل وكثير ونصيب وأيمن بن خريم الأسدى ، وعبيد الله بن قيس الرقيات ، وكان الفرزدق قد عزم على زيارة مصر وواليها عبد العزيز بن مروان ، لولا أن جاءه نعى الأمير عام ٨٦ هـ .

ووفد الامام الشافعى الى مصر عام ١٩٨ هـ وأملى فيها مذهبه الجديد ، وكان مسجد عمرو أو جامعة الفسطاط ، مركز نشاطه العلمى والدينى ، حيث صارت له حلقة فيه ، وفى زاوية منه كان يدرس فيها مذهبه ، ويدون آراءه ، وعلى يديه تخرج كثير من العلماء الذين دونوا المذهب ، ونشروا علم أستاذهم ، كالربيع بن سليمان المرادى (١٧٤ ــ ٢٧٠ هـ) ، والبويطى (٢٣١ هـ) ، والربيع الجيزى الذى ينسب اليه

جمع كتاب الأم وترتيبه بعد البويطى ، وسعيد بن عفير (١٤٦ ــ ٢٢٦ هـ) ، والحسن بن عبد السلام المعروف بالجمل الأكبر (١٧٠ ــ ٢٥٨ هـ) .

وكان عبد الله بن طاهر أمير مصر يجعل سعيد بن عفير ثالث عجائب مصر بعد الهرمين والنيل ..

ومن جامعة الفسطاط انتشر مذهب الشافعى على أيدى تلاميذه ، ومن قبل كانت السيادة للمذهب المالكى الذى كان أول من أعلنه فى مصر ونشره فيها عثمان بن الحكم الجذامى ، ومن شيوخ المالكية فيها أصبح بن الفرج ، كما كان أول محاولة لنشر المذهب الحنفى فيها على يدى القاضى اسماعيل بن سميع الكندى ، الذى ولاه العباسيون عام ١٦٤ هـ قضاء مصر ، فعمل على نشر مذهب أبى حنيفة فيها . أما الحنابلة فكانوا قليلين ، ومن علماء مسجد عمرو كذلك اسحاق بن الفرات تلميذ الليث ابن سعد « توفى عام ٢٠٤ هـ » ، وقال عنه الشافعى : ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس ، وكذلك اسحاق بن بكر (ــ ٢١٨ هـ) وكان يجلس فى حلقة الليث ويفتى بقوله ، والطحاوى واليه انتهت رياسة الأحناف فى مصر (٢٣٩ ــ ٣٢١ هـ) ، وبكار بن قتيبة من قضاة مصر الأحناف (٢١٠ ــ ٢٧٠ هـ) .

وقامت فى جامع عمرو حلقة تاريخية تصدرها محمد بن اسحاق صاحب السيرة (ــ ١٥١ هـ) ، ثم عبد الملك بن هشام راويته ، ومحمد بن أبى الليث ــ كما وفد عليها ابن جرير الطبرى ، وكذلك المسعودى ، وتصدر هذه الحلقة المؤرخون المصريون ، مثل ابن عبد الحكم المصرى مؤلف كتاب (فتوح مصر) (١٦٥ ــ ٢٥٦ هـ) ، ووالده عبد الله بن الحكم (١٥٥ ــ ٢١٤ هـ) ، والكندى وابن يونس (٢٧١ ــ ٣٤٧ هـ) ، وعمار بن وسيمة المصرى (ــ ٢٧٩ هـ) ، وابن زولاق المصرى (٣٠٦ ــ ٣٨٧ هـ) الذى ولد بالفسطاط .

وكان للمعتزلة كذلك حلقة في مسجد عمرو وزعيمها ابن صبيح ، ومنهم أبو عمران موسى بن رباح الفارسي المتكلم ، وسيبويه المصرى (٢٧٤ ــ ٣٥٨ هـ) ، وأبو على بن محمد العاصى الواسطى الذى كان من زعماء المتكلمين المعتزلين فى مصر .

ومن مدرســة اللغويين النحويين الأدباء فى جامعة الفســطاط ، ابن ولاد (٢٣٢ هـ) شيخ العربية فى مصر كما يقول السيوطى فى كتاب « حسن المحاضرة » (١/٢٢٨) ، وأحمد بن يوسف بن الداية صاحب كتاب « المكافأة » وقد توفى بعد عام ٣٣٠ هـ والحسن بن داود ابن بابشاذ المصرى النحوى المشــهور (ــ ٢٣٩ هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ــ ٣٢٨ هـ) ، والادفوى النحوى المفسر (ــ ٣٨٨ هـ) ــ ويروى ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » أن الطلاب المصريين فى جامع عمرو ســألوا ابن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) أن يلقى عليهم شــعر الطرماح ، وكانوا لا يعرفون شــيئا منه ، وكان ممن ســأله فى ذلك على بن سراج المصرى ، فأجابهم الى طلبهم ، وأخذ يمليه عليهم ويفسر غريبه « ٦/٤٣٣ معجم الأدباء » ...

ومن العلماء الأجلاء أبو بكر بن الحداد (٢٦٥ ــ ٣٣٥ هـ) وكان ــ كما يقول السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة ــ ١/١٢٦ » يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها ، وكان يدرس فى جامع عمرو .

وقد وفد على مصر أبو العباس الناشىء الأكبر (ــ ٢٩٣ هـ) والقى آراءه فى الشعر والنقد فى مسجد عمرو . وبذلك صنع مدرســة نقدية كبيرة فى جامعة الفسطاط كانت من أهم مدارس النقد فى القرن الثالث ، وقد تصــدر حلقات العلم فى هــذه الجامعة الكبيرة بعض الوزراء ، من مثل أحمد بن يحيى الوزير ابن سليمان التجيبى (١٧٠ ــ ٢٥٠ هـ) ، وكان له مجلس عام بجامع عمرو ، وقد صحب الشــافعى حين وفد الى مصر ولازم حلقته العلمية فى هــذه الجامعة « جامعــة

الفسطاط » ، ولازمه ، وأخذ الكثير منه كما يقول السيوطى فى كتابه « بغية الوعاة » — ص ١٧٤ ، متخذا فى ذلك سنن أستاذه الخالد ، الامام الشافعى الذى كان يجلس فى جامع عمرو ويلقى فيه دروسه العلمية الحافلة حتى استأثرت به رحمة الله ، وكان اعرابى يتردد على حلقة الشافعى فى مسجد عمرو ، فجاء بعد موت الشافعى فلم يجد قمر هذه الحلقة ، فقال للطلاب الذين يجلسون فيها : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ فقالوا : توفى الى رحمة الله ، فامتلأت عيناه بالدموع ، وقال : رحمه الله وغفر له ، لقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويوسع بالرأى أبوابا مسدودة .

وكما كان أبو نواس من قبل (١٤٥ — ١٩٨ هـ) يجلس فى حلقة خاصة فى جامعة الفسطاط ، ويتخذ له مجلسا أدبيا فى المسجد الجامع ، ويلتف حوله الشعراء والأدباء والنقاد ، أثناء اقامته فى مصر ، كان يفعل أبو الطيب المتنبى أثناء اقامته فى الفسطاط (٣٤٦ — ٣٥٠ هـ) ، يجلس فى حلقة خاصة فى جامعة الفسطاط وحوله الشعراء والنقاد والأدباء يملى وينشد شعره ويستمع لنقدهم ، ويحاجهم ويحاجونه ، وكان ممن أخذوا ينقدون شعره : الوزير بن حنزابة ووزير كافور الأخشيدى (— ٣٥٧) لأن المتنبى أبى ان يمدحه ، وكذلك سيبويه المصرى أبو بكر بن موسى الصيرفى ، وسواهما ..

وكان هناك فى حلقة مسجد الفسطاط لفيف من الشعراء يبدون اعجابهم الشديد بالمتنبى وشاعريته ، ومنهم : عبد الله بن محمد بن أبى الجوع ، وصالح بن رشدين الكاتب ، وابن طباطبا العلوى المصرى وسواهم ..

وهكذا تعددت الحلقات وتنوعت فى جامعة الفسطاط وتصدرها كبار العلماء والأدباء والمفكرين والنقاد ، وخرجت هذه الحلقات أجيالا عظيمة من الباحثين والمتخصصين عاما بعد عام ، مما أمد مصر بهالة من

الجلال ، وجعلها تتصدر أمم العالم الاسلامى فى حمل رسـالة الدين والثقافة والحضارة ، حتى لقد سبقت بغداد فى هذا المضمار .

٦ ـ استمرت جامعة الفسطاط تؤدى دورها الحضارى فى بناء الانسان المصرى العربى المسلم طيلة أيام الولاة الأمويين والعباسيين ، وبفضل هذه الجامعة أصدر أمير مصر الأموى عبد الله بن عبد الملك ابا مروان أمراً رسميا عام ٨٧ هـ بأن تكون اللغـة العربية هى اللغـة الرسـمية للدولة .

وازدهرت الحلقات العلمية فى هذه الجامعة فى عهد الطولونيين (٢٥٥ ـ ٢٩٢ هـ) والأخشيديين (٣٢١ ـ ٣٥٧ هـ) .

وانتقلت الدولة الى الفاطميين من عام ٣٥٧ هـ/٩٦٧ م واستمر الحكم فى أيديهم قرنين كاملين أو يزيد ، حتى عام ٥٦٧ هـ/١١٧١ م .

وشيد الفاطميون الأزهر ، وافتتح فى رمضـان عام ٣٦١ هـ ، ولم يلبث ان اقيمت الحلقات العلمية فيه ، وصار جامعة اسلامية ثانية فى مصر ، ثم أقام الحاكم الفاطمى دار الحكمة أو دار العلم الشـهيرة (عام ٣٩٥ هـ/١٠٠٥ م) ، التى نافست الأزهر أيضا فى رسالته العلمية الجامعة ، ومع ذلك كله فقد كانت مكانة الفسطاط وجامعة الفسطاط قوية ضخمة ، لم تتأثر بالعواصف السياسية الهوج ، فاستمرت جامعة الفسطاط فى مسارها العلمى ، فالحلقات العلمية والعلمـاء والطلاب ، ظلت كما هى ، وظهر التدريس فى مسجد عمرو طويلا .

وكما كان ابن حنبل يقول لطلابه فى بغداد : « ان فى مصر ـ أى الفسـطاط ـ صحيفة فى التفسـير رواها على بن طلحة الهاشمى عن ابن عباس ، لو رحل رجل منكم ليطلع عليها ما كان هذا كثيرا ، كان الشريف الرضى (٤٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) فى بغداد يقول :

ما مقامى على الهوان وعندى   مقول صـارم وأنف حمى

أحمل الضميم فى بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى ؟

وكان الشعراء فى العالم الاسلامى يهتفون لمصر وحلقاتها العلمية ، وجامعاتها الفسطاط ، والأزهر ، ودار العلم ، وهم يقولون :

أسكان مصر جاور النيل أرضكم فاكسبكم تلك الحلاوة فى الشعر

وهكذا كان مسجد عمرو أو جامعة الفسطاط ، مهد الحركة العلمية فى مصر ، وشيوخه صاروا يشاركون شيوخ دار الهجرة ــ مدينة الرسول ــ فى نشر الاسلام والعلوم فى المشرق والمغرب .

ــ ٤ ــ

وظل مسجد الفسطاط الجامعى منتدى لأهل الفضل والأدب ، وحمل لواء الثقافة الاسلامية العربية خفاقا عاليا ، كما كانت الفسطاط مدينة حضارية ذات منزلة علمية وفكرية وأدبية واقتصادية رفيعة .

واذا كان الجامع الأزهر قد أخذ ينافس المسجد الجامع الجامعى فى الفسطاط فى حلقاته العلمية ومجالسه الأدبية ، كما أخذت دار الحكمة تنافسهما معا ، حيث صارت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية ، فان الفسطاط وقد فقد رعاية الدولة لم تضعف قوته ، ولم تلن قناته ، واحتفظت جامعة الفسطاط بأهميتها وبطابعها الدينى والأدبى معا ، وفى فترات ضعف الخلافة الفاطمية كانت الفسطاط وحلقاتها العلمية تتفوق على جامعات القاهرة ، مما تحدث عنه الكثير ممن زاروا مصر من العلماء والرحالة المسلمين ، من مثل أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت « ٥٢٩ هـ » الذى وفد على مصر ودرس الحركة الأدبية والفكرية فيها ، وكتب عنها رسالة بقى منها صفحات قليلة هى التى وصلتنا ، تحدث فيها ابن أبى الصلت عن بعض أدباء مصر وعلمائها ومجالسهم الفكرية والأدبية . وكانت الفسطاط آنذاك أيضا من أغنى الأمصار الاسلامية ، وأكثرها رخاء .. وقد وصفها القاضى محمد بن سلامة القضاعى (٤٥٤ هـ) فى القرن الخامس فقال : ان فيها من المساجد ستة وثلاثين ألف مسجد ، ومن الحمامات ألفا وثلاثة وسبعين حماما ، ومن الشوارع

المسلوكة ثمانية آلاف شارع ، وأسـواقها عامرة ، وهى عامرة بالمنازل الشاهقة وفيها دار عبد العزيز بن مروان ، وفى داخل هذا الدار خمسة مسـاجد وحمامان ، أما بضـاعة العلم فى الفسـطاط فكانت أغلى البضـائع وأنفسها .

وفضلا عن الأسواق التى كانت للكتب فقد كانت صناعة النسخ واسعة النطاق يعيش منها آلاف من المشتغلين بالعلم ، وحلقات العلم تعقد فى المسـاجد ، وكان جامع عمرو الذى يسمى تاج الجوامع مكان التحديث والتدريس من عهد الصحابة الى زمن الأئمة ، وفيه كانت حلقات الامام محمد بن ادريس الشافعى .

واستمرت هذه الحلقات العلمية كل يوم بلا انقطاع فى جامع عمرو ، وكانت لا تقل عن بضع وأربعين حلقة فى عام ٧٤٩ هـ ، كما يقول السيوطى فى « حسن المحاضرة » (٢/١٣٦) .

واحرقت الفسطاط فى عهد الحاكم ثم فى عهد شاور عام ٥٦٤ هـ ، وفى الحريق الثانى محيت هذه المدينة الاسلامية بما فيها من ذكريات ومكتبات ومدارس ومعـاهد علمية ، ومع ذلك أخـذ الناس يعمرون الفسطاط فى عهد صلاح الدين الأيوبى والدولة الأيوبية ، ويسكنونها ، ويقيمون فيها ، وينظمون الحلقـات العلمية والأدبيـة من جديد فى مسـجدها الجامع .

وفى القرن السابع وفـد ابن سـعيد الأندلسى الى الفسـطاط عام ٦٣٧ هـ ، ووصفها فى كتاب (المغرب فى حلى المغرب) الذى أفرد منه فصـلا كبيرا عن الفسطاط بعنوان « الاغتباط فى حلى الفسطاط » وقد نشر فى مصر ، وتحدث فيه عن المدينة وأدبائها ، وشاعرها أبى الحسن الجزار (ـــ ٦٧٩ هـ) وكانت الفسطاط قد استردت الكثير من بهائها السـالف ، وأهميتها الاجتماعية القديمة بسبب قيـام المدينة الجديدة التى أنشـأها الملك الصـالح فى جزيرة الروضـة المقابلة للفسـطاط

سنة ٦٣٨ هـ ، واتخذها عاصمة له ، فسكن كثير من الأمراء والكبراء بالفسطاط فى الضفة المقابلة للروضة ، وظل مسجد عمرو برغم عفائه وقدمه ونسيان أمره عامرا بحلقات العلم والدرس ، وان كان لم يعد إلى شموخه القديم .

ولم يتخل المسجد الجامع ــ جامعة الفسطاط ــ عن دوره الحضارى والفكرى والأدبى حتى نهايات القرن السابع الهجرى . ثم سكت الصوت وخفت الضوء وحمل الأزهر وحده عبء الثقافة الاسلامية فى مصر العربية ، وهكذا انتهى دور جامعة الفسطاط الاسلامية .

خاتمة الكتاب

حمدا لله وشكرا

هذه هى نهاية هذا الكتاب ، الذى كشفت فيه عن جامعة اسلامية كبرى ، قامت فى مصر ، واستمرت تؤدى رسالتها منذ الفتح الاسلامى العربى لمصر حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ، أى سبعة قرون ، ثم سكت صوتها ، وانتهت حياتها ، وتركت ميراثها العظيم للأزهر الشريف ، يحمل عنها العبء ، ويتحمل المسئولية ، ويؤدى رسالة الاسلام للعالم الاسلامى ، ويحافظ على لغة القرآن ، وتراث الاسلام العظيم فى شتى فروع العلم •

ونحن لا نملك الا الذكرى والوفاء والدعاء ، والأمل فى التطور لهذا الصرح الكبير الشامخ الذى حافظ على صلابته سبعة قرون ، انتهت بمرورها أيامه ، وانطفأت فى ظلام الأحداث أضواؤه •

والعاقبة للمتقين ، والفوز والخير للعاملين •

وما توفيقى الا بالله •